خواطر

(ESSAIS)

ميشال شيحا

خواطر

(١٩٤٣-١٩٤٦)

(ESSAIS)

عرّبها
جميل جبر
دكتور في الآداب

دار النهار للنشر ومؤسسة شيحا

© **دار النهار للنشر**، بيروت
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، حزيران ١٩٩٧

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩

ISBN 2-84289-027-2

المحتويات

١١ توطئة
١٥ مقدّمة
١٧ حول الشعر
١٩ فرح ودم
٢١ من «بايار» إلى أيّامنا هذه
٢٣ تنويعات حول البحر المتوسط
٢٦ الموقعة في كاسينو وجبل كاسين
٢٨ رحلات
٣٠ أربعاء الرماد
٣٢ عن الحرّية
٣٤ حول التاريخ
٣٦ عن الموسيقى
٣٨ تأمّلات المساء
٤٠ حكاية قديمة
٤٢ الحياة والشرائع
٤٤ الكتابات النثرية اليوميّة
٤٦ ربيع
٤٨ العشاء السرّي
٥٠ قيامة الموتى
٥٢ مليكات
٥٤ خاطرة أحديّة
٥٦ حبّ الوطن
٥٨ ملاحظات حول الجغرافية
٦٠ لمناسبة عيد جان دارك
٦٢ هجمة ربيع
٦٤ الحرارة الشديدة
٦٦ ٤٠ درجة خط العرض الشمالي
٦٨ سلم
٧٠ اقتحام الباستيل و«الظالم الرحوم»
٧٢ القدر يسير

٧٤ قيامة باريس
٧٦ تقلّبات مفردات اللغة
٧٨ هكذا تكلّم لي-هنغ-تشانغ
٨٠ بعض إرشاد للقارئ
٨٢ بديهيّات
٨٤ بورجوازيّو كاليه
٨٦ تعليقات شعريّة حول روسية
٨٨ ملاحظات حول الزمن
٩٠ تنويعات حول ألوان الخريطة
٩٢ «تلامذة قدامى»
٩٤ «طفل وُلد لنا»
٩٦ الحرب، آخر هذه السنة
٩٨ استقلال وترابط متبادل
١٠٠ من سنة إلى سنة
١٠٢ مستقبل ألمانية
١٠٤ ثلوج وخُدع
١٠٦ العمل الذي يُنقذ
١٠٨ صوت الڤاتيكان
١١٠ أربعاء الرماد تعود
١١٢ بعد نهار من المشاغل
١١٤ ملاحظات حول الشرق المعاصر
١١٦ الحياة عميقة
١١٨ الحرب والربيع
١٢٠ يوم الجمعة ذاك
١٢٢ موت الذئب
١٢٤ النشرات الإذاعيّة الألمانيّة
١٢٦ حقّ اللجوء
١٢٨ زمن الرقاد
١٣٠ أورروبة ١٩٤٥
١٣٢ حرّية العالم
١٣٤ عودة السيّد هريو إلى فرنسة
١٣٦ انكلترة وإرلندة
١٣٨ تنويعات حول الراديكاليّين
١٤٠ كلمات ضائعة
١٤٢ نسبيّة
١٤٤ خاطرة ليليّة
١٤٦ مساواة وإخاء
١٤٨ سلم المحيط الهادئ
١٥٠ الإنسان والكواكب
١٥٢ اليابان المنهزمة
١٥٤ المال والحرّيات
١٥٦ مقارنات
١٥٨ مبادلات وهبات
١٦٠ هروب الوقت
١٦٢ تأمّلات حول السلم
١٦٤ خريف
١٦٦ من سرب فرّي إلى بتهوڤن
١٦٨ بدون شغف ولا بغض
١٧٠ الآلهة الساقطون
١٧٢ أوراق ميتة
١٧٤ الأزمنة الرؤيوية
١٧٦ سياسة هذا الزمن
١٧٨ ميلاد ١٩٤٥

١٨٠ حضارة
١٨٢ القمر والرادار
١٨٤ حقّ الأقوى ...
١٨٦ نحو إمبراطوريّة الغرب
١٨٨ تذكّر أنك من تراب!
١٩٠ تضامن الروحيّ والزمنيّ
١٩٢ ربيع!
١٩٤ تحت شعار التاريخ
١٩٦ قرابة العلوم والفنون
١٩٨ كلام بيّوس الثاني عشر
٢٠٠ مقاضاة الماضي
٢٠٣ بين القوانين والطبيعة
٢٠٥ خريف الأفكار
٢٠٧ خريف
٢٠٩ كلمات ضائعة

توطئة

ربّ سائل لماذا تُنشر من جديد آثار ميشال شيحا، معرّبة، بعد انقضاء زمن طويل على كتابتها، شهد العالم، خلاله، تطوّراً مُذهلاً في مختلف الحقول، لا سيّما وأنها كُتبت، من وحي أحداث يوميّة عابرة.

الواقع إنّ ما كتبه ميشال شيحا قلّما كان مرهوناً بأوقاته فعفّى عليه الدهر، بل انطلق من أحداث معيّنة فتجاوزها إلى مسلّمات إنسانيّة وثوابت صانت نضارته، شكلاً ومضموناً، حتى كأنّ حبره ما جفّ بعد.

ولكم استخلص هذا المفكّر الشاعر الفذّ من عبر الماضي رؤىً تقرب من التنبّؤ حول واقع لبنان ورسالته ومستقبله وحول مصير الإنسان والكون.

في معظم ما كتب ميشال شيحا تصدّى للقضايا الكبرى التي تعني كل إنسان في كل عصر ومكان. ومن أبرز هذه القضايا: الحرّية، العدالة، السموّ الروحي، المساواة الحقيقيّة، خلود النفس، مفهوم العمل، عظمة التضحية، الإخلاص للوطن، حتميّة نهاية الشيوعيّة، ضرورة الوحدة الأوروبيّة حرصاً على التراث الغربي ومنعاً للحروب، العودة إلى الطبيعة، الحضارة الصحيحة، أهمّية الشعر والفنّ والجمال في الحياة اليوميّة.

وتميّز أسلوبه بالرشاقة والأصالة والبلاغة والعمق وقوّة التعبير في

عفويّة بعيدة عن التصنّع والحذلقة، فكأنّه حوار حميم مع القارئ.

في هذه «الخواطر» التي قال عنها صاحبها، على حقّ، في المقدّمة إنها «وليدة الأحداث والحياة ولها طابع الشهادة»، نموذج حيّ عن سائر كتاباته شعراً ونثراً. وقلّما خلا نثره، حتى في معالجة شؤون السياسة والإدارة والاقتصاد، من انطلاقات مجنّحة وإيقاع شجيّ.

أمّا النجاوى، في غمرة الطبيعة التي تعكس نورانيّة الخالق، وفي نشوة الجمال الحسّي والمعنويّ، فهي من صفوة البيان الذي كلّما عتق ازداد سحراً.

كتابات ميشال شيحا فعل إيمان بلبنان الحضارة وبالإنسان الذي رجحت فيه كفّة الملاك على كفّة البهيمة في ميزان القيم.

جميل جبر

ميشال شيحا

وُلد في ٨ أيلول ١٨٩١. وأكمل دراسته الثانويّة في جامعة القديس يوسف في بيروت سنة ١٩٠٦. ثم سافر إلى إنكلترة حيث قضى ثلاث سنوات في القيام بدراسات تجاريّة وماليّة كي يستطيع تسلّم مركز والده المتوفّي على رأس إدارة مصالح عائلته التجاريّة والماليّة.

في سنة ١٩١٥ اضطرّ إلى مغادرة لبنان ملتجئاً إلى مصر حيث درس الحقوق في معهد القاهرة.

بعد أن عاد إلى لبنان سنة ١٩١٩ ساهم مساهمة نشيطة في الحياة السياسيّة فانتخب نائباً عن بيروت سنة ١٩٢٥، وقام بدور فعّال في وضع الدستور اللبناني.

وفي سنة ١٩٢٩، بعد نهاية مدّة نيابته، لم يشأ أن يترشّح إلى الانتخابات النيابيّة.

أنشأ سنة ١٩٣٤ صحيفة *Le Jour*، وثابر على التحرير المستمرّ فيها حتى آخر أيّامه موجّهاً سياسيّاً بارزاً.

غاب عنّا والقلم بيده في ٢٨ كانون الأوّل سنة ١٩٥٤ وكان آخر مقال كتبه قد ظهر في عدد الميلاد ١٩٥٤.

زوجته مارغريت فرعون. وابنتاه مادلين قرينة بيير حلو وماري-كلير قرينة جوزف ضومط.

أهم مؤلّفات ميشال شيحا

في الشعر :
بيت الحقول

في النثر :
لبنان اليوم : (نقل إلى العربيّة)؛ **لبنان في شخصيّته وحضوره** (نقل إلى العربيّة)؛ **تسابيح**؛ **خواطر** (جزءان، نقل إلى العربيّة)؛ **نظرات في الاقتصاد اللبناني**؛ **فلسطين** : (نقل إلى العربيّة والإنكليزيّة)؛ **سياسة داخليّة**؛ **تنويعات حول البحر المتوسّط**؛ **مجموعة محاضرات**.

مقدّمة

١٥ آب ١٩٥٠

ها صفحاتٌ صادقة هي وليدة الأحداث والحياة. ولها طابع الشهادة لأنّها كُتبت يوماً فيوماً واستقت الصورة والشعور والفكرة من مصادرها مع ما قد تحوي من انفعال وشعر.

لأنها وُلدت من شغف العيش وحبّ السلم والنظام والعدل والطبيعة والوطن والحالة البشريّة، ومن عجائب اللانهاية واحتمالاتها، فهي تكشف عن ثوابتنا اليقينيّة ومخاوفنا. وهي، بالنسبة لحقبة سنوات ثلاث بين نهايتي ١٩٤٣ و١٩٤٦، كصدى يردّد في أعماقنا انتصارات للحياة والموت.

بيد أنها وُلدت أيضاً من نداء القارئ ومن استقباله الهادئ أو المضطرّب لها. وما هي إلاّ حلقة في سلسلة طويلة من كتابات صباح ومساء عبّرت عن تعارض النور والظلّ.

وجيزة هي وأرسلت إلى الطبع غبّ كتابتها لذا ما لابسها تصنّع.

إن عنوان «خواطر» الذي تحمله، جاءني من قارئ عطوف مشجّع وصفها هكذا.

نأمل أن تكون هذه الصفحات المنبثقة عن تأمّلاتنا، وأحياناً من أحشائنا، قد حافظت ما يكفي من الطبعيّة والطراوة التي تستهوي القارئ فتستحقّ البقاء.

ننشرها، كما تُنشر ذكريات ومسارّات مع فارق هو أنها ما صدرت من مخيّلتنا ومن الماضي، بل من النشيد، من الجرح، من الحدث، من الفكرة، من الصدمة في وقعها المدويّ الأوّل.

ونقدّمها إلى القارئ الذي قد يكون قرأ منها هذه الصفحة أو تلك، كما لمن سيطّلع عليها، رغبة منّا أن يقاسمونا، مع ثمرة خريفنا الناضجة، شيئاً من قلبنا ومن معتقداتنا وأهوائنا.

م. ش.

حول الشعر

٧ كانون الأوّل ١٩٤٣

الشعرُ قبل أيّ شيء آخر.

ليس ثمّة أهمّ منه، ولا أشدّ ضرورة في هذا الوقت. فالقبح يغمر وجه الأرض كالبرص. والنصر يخالطه الدمار وقاذفات القنابل في خدمة الله. إنها ساعة رئيس الملائكة الغاضب، ساعة الصاعقة والحنق. ولكنّ، على صعيد الروح، كل شيء يتغيّر. فإذا الألم يسود، وما يجري متناهي الجمال. في الليل وبين الدموع ثمّة سموّ عجيب ونداءٌ لهيف إلى الألوهة، وصراخ يتجاوز الإنسانيّ ليصبح فائق الطبيعة.

«أعرف أن الألم هو النبل الأوحد...».

ما من عظمة إلاّ وتنبثق عن النفس. لذا تستطيع كل طرفة فنّية أن تكون عظيمة حتى لو لم تعبّر إلاّ عن تمزّق. فما عسى يكون حالنا بلا الشعر الذي هو صلاة، الذي هو موسيقى، الذي هو جمال، الذي هو حبّ، الذي هو عقل، الذي هو نور!

هذا شأن شكسبير وراسين، ثم بودلير وكيتس وغيرهم من سحرة النهار والليل.

وهل ثمّة شيء آخر قادر حقّاً على أن يشفينا أو، على الأقلّ، يُعزّينا عن رؤية تراكم الأنقاض؟...

«الهواء يمتلئ برعشة الأشياء التي تتوارى...».

لنفكّر، بدورنا، بهذا السرّ في الشعر، بهذا البلسم، بهذا الفداء، بما يحويه كل هذا من خالد لا يحدّد.

«شعر» تسمّيه الكتب وتقول عنه «فنّ نظم القريض». ما أجفّ هذا التعبير. إنّ لفي الحطبة رنّة أشجى من هذا التعريف الغليظ.

هل الشعر الحقيقيّ إلاّ ذاك التوافق العجيب بين نغم الأصوات ونغم المشاعر والصور والأفكار، وائتلاف لا يُنتظر، ونشوة تعمّ الكائن كلّه.

إن قرناً من الزمان لا شعر فيه لهو قرنٌ ضائع، وحضارة لا شعر فيها لمصيبة عالميّة.

فرح ودم

ميلاد ١٩٤٣

تراءت لنا، من خلال ميلاد يسوع، مجزرة الأبرياء. ومع هذا، السماء والأرض في نوع من النشوة، ذلك أن سرّ الفداء كلّه حصيلة هذه المفارقة: تناوُب فرح وألم وتوازنٌ بينهما.

ما كاد الملاك يقول: «أبشّركم بفرح عظيم» حتى ارتفع من المكان عينه صوت «راحيل تبكي بنيها ولا تريد من يعزّيها لأنهم تواروا من الوجود».

منذ الدم الذي سفكه داود ما انفكّ سرّ الدم، كالنهر الكبير، يعبر كل شيء. هذا الدم الذي هو أخو الخمر، الذي هو شرابٌ وحياة، ما زال يسفكه الإنسان في سورة جنونه. إنه دم الأبرياء، دم المعمدان وكثيرين غيرهم، دم الكرامة والاستشهاد. وقد يكون البحر مصدره البعيد، لذلك يشبهه.

نهرب من السرّ، ذاهلين أو هلعين، فيما ينبغي، بالعكس، أن نرتمي في هذه الهوّة، فنُلقي، كالسبّاح، برأسنا أوّلاً في الماء المتوهّج تحت أشعّة الشمس، في يوم ربيعيّ، بين الصخور. ثم نحاول أن نتطلّع إلى قاع الماء، قاع الحياة...

عجائب الميلاد! في جبل يهوذا قرية ضائعة، ولكن أعلن عنها منذ أقدم الأزمان. قرية صغيرة مصطفاة! ... في ليل وهميّ، ربّما قليل البرد، رعاة وقطعان نيام، وفي السماء الصافية فجرٌ ليليّ، وملائكة، وكلمات إلهيّة

فريدة، والنجمة بين النجوم، وموكب المجوس (الحكماء) يحملون الذهب والعطور: بخور ومرّ. إنها روعة خارقة، يعجز العقل عن إدراكها، سيطرت على الأسطورة والتاريخ معاً، لأنها الحقيقة.

من «بايار» إلى أيّامنا هذه

٢١ كانون الثاني ١٩٤٤

نهر غاريغليانو[١] الذي اجتازته الفرقة الخامسة في الجيش البريطاني أثناء زحفها على رومة، هذا «النهر الصغير» كاف ليمزج بمجراه ذكريات طفولتنا. فقد كان، بنظرنا، من أهمّ أنهر العالم بعد أمثولة تاريخ سمعناها.

لمّا سدّ بايار[٢] العبور على جسر هذا النهر، سنة ١٥١٣، لكي يتسنّى له أن يحفظ خطّ الرجعة، دافع وحده عن هذا الموقع ضدّ مئتي أسباني. وها نحن نرى، من جديد، على غلاف دفتر مدرسيّ، لوحة رسمها لاريڤيير، تمثّل هذه الواقعة. وفي هذه الصورة ظهر بايار على حصانه، بجانب الجسر، بمظهر أبطال الملاحم.

إن لاستعادة مثل هذه الذكريات دلالتها بالنسبة لأبناء جيلنا، لأننا كنا بلغنا سن الرجولة قبل عهد الانتداب. حينذاك كان تاريخ فرنسة يعني لنا التاريخ كلّه. وكنّا نحيا هنا كما لو كان الملك فرنسوا الطيّب القلب ما زال يحكم فرنسة. وهذا دليل على مدى الدرب الذي قطعناه مذذاك.

عهد كانت فرنسة نفسها تولي أهمّيّة مفرطة لتاريخها ما بعد الثورة على

---

١ . Garigliano: نهر في إيطاليا.

٢ . Bayard: قائد فرنسي اشتهر بالبسالة والنبل.

حساب المراحل السابقة، ظللنا نحن، على هذا الشاطئ، نحسب فارامون[٣] معاصراً لنا وقضيّة إناء سواسون[٤] كأنها جرت قبل العشيّة.

ما استمرّ حضور فرنسة في أيّ مكان في العالم بين الجنس الأبيض إلا بفضل القوى الروحيّة. ولم تخذلها قطّ هذه القوى في أيّ مكان. أمّا المصائب التي حلّت بها فلها مصادر أخرى.

أمّا السبب فينبغي التفتيش عنه في حياة القائد بايار، وموته، هذا البطل الذي عاد إلى الظهور بدرعه، من أعماق الماضي، على النهر، لكي يهزّ من جديد مشاعر صغار تلامذتنا وأهلهم معاً.

٣. Pharamond: ملك أسطوري.

٤. Vase de Soissons: بعد موقعة سواسون سنة ٤٨٦ حطّم جندي هذا الإناء المقدّس فانتقم منه كلوفيس بتحطيم رأسه.

تنويعات حول البحر المتوسّط

١١ شباط ١٩٤٤

قد يكون هذا البحر هو الذي رأى أوّل قارب وأوّل مجذاف.

أحداث جيولوجيّة هائلة جعلته كما هو: بحراً داخليّاً، بقي، زمناً طويلاً، مُغلقاً لا يعرف منفذاً إلاّ إلى المحيط. لكن المياه القليلة العمق في جبل طارق أوقفت الأطلسي الجبّار عند حدّه.

بعد آلاف السنين اتّصل به البحر الأحمر اتّصالاً بعيداً ليس بذي شأن. وما البحر الأسود، الثقيل الجوّ، إلاّ القسم الغضوب والسرّي من البحر المتوسّط.

يطابق اسم البحر المتوسّط معناه حقّاً، فهو بحر داخليّ تحيط به حياة داخليّة.

للمؤرّخ (وقد يكون للجغرافيّ رأي آخر) يبدو البحر المتوسّط كأنّه البحر المختار وعنصر، من تدبير العناية الإلهيّة، ضروري في مجرى الخليقة. وقد ظلّ، طوال قرون، بحر إمبراطوريّة واحدة. وأكّد هذا الواقع أن بين سكّان شواطئه، حيثما التقوا، وجه قرابة.

المتوسّطيّون الحقيقيّون هم الذين يميلون إلى البحر وإلى كلّ ما يتّصل به: النسائم أو رياح العباب العاصفة، وألوان الماء والسماء وروعة الجزر وما فيها، والصيد البحري في الصباح أو المساء، والطحلب والأخنيوس ومشاهد الغروب الجميلة.

أمّا الأوروبيّون البرّيون فلهم وجه آخر. أحداقهم تبحث عن غير آفاق ولهم ملذّات أخرى. الصحراء، مثلاً، هي بحر أيضاً، بطريقتها الخاصّة، لكنّها تخلق لأبنائها رئات أخرى.

إن المتوسّطي، بطبعه، بنّاء سفن، (وما انقطع عن هذا البناء إلاّ بعد أن قضى المحرّك البخاري على الشراع). وهو رجل أسفار مغامر. أمّا البرّي الآخر، إبن آسية (وهنا يلتبس كل شيء)، فهو ميّال إلى التكامل الطويل، إلى الليالي المقمرة والأحلام المضطرمة. إلاّ أن هذا لا ينفي قيامه بجولات طويلة على صهوات الجياد.

حوالى سنة ٣٤٠، قبل الميلاد، سكّ أزبعل، ملك جَبال (ومعناها بالآراميّة ملك بيبلوس، جبيل، أو ملك الجبل) نقوداً فضّية جميلة حملت رسم سفينة شراعيّة، عجيبة الطراز، على حيزومها رأس أسد، وفي وسطها جنود مشاة يلبسون الخوذ، ويتمدّد في الأسفل حصان بحريّ. وقد أراد هذا الملك، أن يشير إلى أنه، وأن أحبّ الجياد، فهو رجل بحر، دائم التأهّب للقيام برحلات بعيدة...

في حين أن معاوية، رئيس الأمويّين، وقد اضطرّ سنة ٦٤٩ (حوالى ٢٧ هجريّة) أن يركب البحر، في حملة عسكريّة، (وما كان آنئذ إلاّ قائداً كبيراً فقط)، نزل هو وزوجته إلى السفينة لكي يُعطي جنوده المثل الصالح ويبدّد خوفهم من البحر. ولم يكن وراء معاوية أيّ من أبناء حوض المتوسّط.

هكذا يُعرف أسياد هذه الشواطئ الشرعيّون.

وهناك دلائل أخرى غير هذا الموقف البشري الطبيعي من البحر. هناك شهادة الطبيعة بالذات تدحض التصنّع. أوليس القفر للقفر أخاً وشجرة الزيتون لمثيلتها أختاً؟ فحول المتوسّط ذات المناخ وذات القوى الخفيّة وذات ثمار الأرض، لا بدّ أن تصنع طبيعياً ذات البشر.

إن البحر المتوسّط، حتى المغرب وحتى اسبانية، يخصّ كل أبنائه. ونحن ندّعيه بحقّ كما يدّعيه آخرون لأنه صلة انسجام بين كل الأفكار التي يرويّها.

إنه البحر الداخلي للآداب والفنون والشعر والموسيقى.

وهو، فوق كل حكم مسبق وكل عنف، أكثر من أي بحر آخر، رمز اتّزان وإخاء.

الموقعة في كاسينو وجبل كاسين[1]

٢٠ شباط ١٩٤٤

إذ يتعرّض جبل كاسين لقصف المدافع فإنّه يُثير المسيحيّة بأسرها. مسيحيّة تعود بها الاختراعات «الجميلة» مع جماح القوّة الوحشيّة إلى عهد الدياميس.

إن الدير الشهير الذي أسّسه القديس بندكتوس، زمن تأسيس الرهبنة البندكتية، أصبح، حسبما تعلن البرقيّات، هدفاً من أهداف المعركة. فهل من يُنقذ المكتبة والمخطوطات والجداريّات؟ لقد جعل الألمان، بدون تردّد، هذا البناء حصناً، هذا البناء الذي يحمل كل مكان منه كلمة «سلم».

لا بدّ أن يكون هذا التصرّف قد أغاظ البندكتيين الألمان وملأ قلوبهم غمّاً، لكن في ألمانيا ليس القلب دائماً ميزة الناس. ومع هذا نتخيّل البندكتيين، حيثما وجدوا، فريسة الحزن والقلق. كيف لا والدير، في أعلى الجبل، وقد حفظت جدرانه بقايا القدّيس بندكتوس، استخدم لقطع الطريق على المحرّرين. هكذا يشعر البرابرة بحضورهم في جبل كاسين، كما في رومة في غابر الزمن.

لقد اجتاحت هذه المغامرة المريعة أربعة عشر جيلاً من الدعاء والطُقوس

---

١. Cassino et Mont Cassin.

والعلم والموسيقى المقدسة وروائع الأدب. فالحرب، كما نرى، تمتدّ أكثر فأكثر إلى الأماكن العابقة بنفحة الروح وهي تنقضّ على الأحداث الداخلية وعلى الصمت.

حين أنشأ القديس بندكتوس سنة ٥٢٩، في جبل كاسين، طريقة الحياة البندكتيّة ببساطتها المثاليّة، كانت مدرسة الحقوق في بيريت ما تزال قائمة. ولم تكن الزلازل قد دمّرت بعد المدينة وقضت على تعاليمها. وربما تعلّم مواطنونا، حينذاك، شيئاً من تلك الرهبنة الناشئة.

في ذلك الزمن كانت المواصلات البحريّة آمنة، ولو بطيئة، وشائعة نسبياً.

إن مقرّ الرهبنة الشهير في جبل كاسين حيث كان يعيش حتى الآونة الأخيرة، كما قيل لنا، مئتا راهب ومبتدئ، له فضله على الحضارة. فلولاه لكانت انقرضت روائع عدّة من العصور القديمة. ولولاه لما كان أخذ العلماء العرب في العصر الذهبي، ما أخذوه عن اليونان لينقلوه بدورهم الى الغرب.

وربّما لولاه أيضاً لما كان بلغ عصر النهضة الإيطاليّة ما بلغه من ازدهار.

في بداية القرون الوسطى ما أكبّ الاّ هؤلاء الرهبان على درس آثار العصور القديمة وحفظ روائع هوميروس وفرجيليوس ثم نشرها والتفاني بإنقاذ الكثير من البدائع.

الآن إذ يتعرض جبل كاسين لقصف المدافع فإن شعور الكآبة يساور كلّ متوسّطي وكلّ متضلّع من الثقافات القديمة وكل عالم وأديب.

رحلات

٢٢ شباط ١٩٤٤

هذه الطريق الجميلة المُستقيمة، طريق المستقبل الطويلة التي تؤدّي من بيروت إلى كلكوتا، ثم، عبر برمانيا، حتى الصين، ها هي أمام أعيننا. بعد دمشق الأموية وبغداد العبّاسية، وهما محطتان أليفتان، تبرزُ أسماء طنّانة أخرى: أصفهان، كانداهار، دلهي، بناريس، المُدُن السلطانية والملكية... فوق دجلة وفوق الفرات، من على الهندوس ومن على الغُنج، سنغنّي، ذات يوم، بالبساطة عينها كما في غير مكان وكالماضي، أغنية: «فوق جسر أڤينيون...»

رؤى الغد! انطلاقات! سرعة! رحلات يروم كلّ، من خلالها، أن يرى ما لم يره بعد. فأوروبة، من هذه الجهة، وآسية من تلك ستتدفّقان علينا حين تسير الواحدة نحو الأخرى.

لطالما شُغفت أوروبة بآسية، ويتوق ملايين الآسيويّين بالغريزة، إلى مناظر لا يسودُ فيها اللون الأصفر فيتوجّهون نحو الغرب، مثل كبار الرحّالة البحريّين مثل المُدن النامية.

للمغرب إغرآت سرّية. في خاتمة نهارنا نتطلّع جهة المغرب. والشمس الغاربة هي دائماً شمسُ متعقّلة. فمن هذه الجهة يجهد الإنسان المُتعب في بناء منزله. وآسية المشتعلة تحلم أكثر فأكثر بوجوهنا، ببحارنا، وبمناخاتنا،

فاذا كل طُرُقها تنتهي إلى هنا، إلى عتبة المتوسط، كما طُرُق الحجّ الكبيرة.

علينا الحذر اذن لأن مدّ المحيطات يتضاءل أمام المدّ البشريّ.

منذ زمن بعيد نجد حولنا برقشة «بشرية» جديرة بالرقصات التعبيريّة الروسيّة. وإننا نتقبّل هذه الرقصات حين نتذكّر روائع دياغيليف وباليف. لكن آسية الغد ستدفق علينا حشوداً تحمل برقشة مختلفة.

كم من آلاف الآلات الطيّارة والسيّارة والزاحفة، كم من السفن المارّة من هنا ستجوب غداً طرق البرّ والبحر والسماء! فلننتبه إذن لما سيأتي ولما أتى! فلنهيّئ الحوض والرصيف للسفينة والمرآب للسيّارة والعنبر للطائرة. فلنهيئ الفندق والمسكن. ولكن علينا أيضاً أن نفكّر بما قد يصيب حياتنا الحميمة وحياتنا الداخلية إن لم ندافع عنهما.

آسية، أوروبة. إن العالم القديم في تحركه سيزداد عبوره مرافئ المشرق وسيسير العالم الجديد أيضاً على هذه الطريق.

كلكوتا، ماندالاي، هانوي، كانتون، شانغاي! إن لمن الماتع جداً (ومن الخَطر جداً كذلك) أن نكون في مثل هذا الموقع الحسن على طريق الدورة حول العالم.

أربعاء الرماد

٢٤ شباط ١٩٤٤

أمس ذكّرت الكنيسة الإنسان بأنه من غبار. ففظائع الحرب لا تكفي لكي توقظ فينا هذه الذكرى الخطيرة. صحيح أننا نتعوّد كل شيء لأن النسيان شيمةُ البشر ورُبّ أمر يساورنا طوال حياتنا قد لا نأبه له. إن لفي بادرة الكنيسة هذه عظمة تسمو بالغبار البشريّ إلى المادة الكوكبيّة.

ألا يجدر بنا ههنا أن نتذكّر قول پاسكال: «وأخيراً ما شأن الإنسان في الطبيعة؟ عدمٌ بالنسبة للاّنهاية وكلّ بالنسبة للعدم. وسط بين اللاشيء والكلّ».

« ... إنّ أيّ محطّ حسبناه يُقوّينا إن تعلّقنا به، يتزعزع ويتخلّى عنا، وإن لاحقناه أفلت منا وزلّ وهرب هروباً أبدياً ... »

تلك هي حالنا. ومع هذا، نحيا في غمرة الحمّى، لا يُخيفنا أي اضطراب. إنّ حشدَ أوهام وأحلام وتصوّرات يُغلّبنا على الواقع، على المحتّم، على هذا الغبار أخيراً، بحيث يقتضينا جهدٌ هائل لاستعادة شكل وجهنا.

بيد أن الجلال الذي تتّسم به هذه البادرةَ الدينيّة تخرج الإنسان على جوهره ليسيطر على الغبار والموت في آن. ذلك أن قدرة الروح تنزعنا من ذواتنا، كما بالقوة، لكي تُرينا، بصفاء، في حفنة رماد، ما سنصيره بدون

مُنجد.

يُقال إن المسيحيّة مدينةٌ لانكلترة بعادة أربعاء الرماد (ويمكننا القول بل الانسانيّة مدينةٌ لها، بدون أن نمسّ شعور أحد). قبل غليوم الغازيّ، بزمن طويل، تخيّلت كنيسة إنكلترة هذا الرمز واعتمدته، لكأن إنكلترة شاءت، مذّاك، أن تتنصّل من خطيئة الكبرياء التي ما فتئت تعزى اليها. فالرماد، بثوبه الأغبر، التائه في ضباب الشمال، يعبّر أكثر من أي مكان آخر، عن التواضع. بينما، عندنا، مثلاً، تحت أشعة الشمس، يحسب الغبار عينه حين يخترقه النور الساطع، أنه ما زال يمثّل شيئاً ما فتُثقله، على هشاشته، خطيئة الملائكة.

إن على الأرض، الآن، جبالاً من الرماد. وليس بنو البشر، ضعفاء، كانوا أم أقوياء، هم الذين يحملون على جباههم علامة المصير، بل تحملها مُدُن شاسعة.

نتحدّث عن هذا بحزن ولا ريب. ولكن، لكي نشرح أمثولة الحكمة الأزلية التي تحثّنا جميعنا، أياً كان شأننا، على أن نتذكّر، ولو مرّة في السنة، بداية كلّ شيء ونهايته. أن نتذكّر نقطة وصولنا ونقطة الانطلاق.

«لأنك من غبار». كيف ننسى ذلك؟ أجل، كيف ننساه؟

عن الحرّية

٢٧ شباط ١٩٤٤

من على منبر الخطابة يدعوننا لكي نعنى بالحرية. ولا بدّ أن تُثير مشاعرنا دعوة كهذه لأن وضعنا البشري في كفّة الميزان.

ان للحرّية المقام الأول بين كلّ ما يشغلنا من أمور. حتى أن آفاقنا تنفتح أو تنغلق بقدر ما ننعُم بها أو نُحرم منها. وما شأن الإنسان إن لم يكُنْ حراً؟ شأنه أقلّ من شأن الدوريّ في الهواء وأقلّ من السنديانة في الغاب. لكن ثمّة الحرية، هذا الامتياز في التكوين، هذا الشرف، هذا الحقّ، هذه الممارسة الشخصيّة لسيادة متشامخة. ثمة موهبة القدرة الفائضة على القول: إني أريد أو أعارض، أفكّر، أُذعن، أقبل، أو على العكس، أناقش ولا أريد. ان خليقة هكذا جُبلت كيف يسعنا أن نتصوّرها الاّ على مثال الله، ولكأنها ثمرة حيّة من نفحة الألوهة؟

بلا الحرّية ما يكون من أمر العقل الذي يختار وينتخب؟ ما يكون من أمر التفاني الذي هو طوعيّ أكثر من أي عمل نبيل آخر؟

لكن لا بدّ أيضاً من سؤال: ما هي الحرية؟ هل هي مليكة الجنس وأمّ القدر، هل هي خليلة وقحة ومقامرة مبهمة؟ أي تحديد يشملها كلها، بما فيها من نقاء وعنفوان وإثارة وما فيها من تشكّك وضعف وسقوط أمام الغواية؟

نحن نعرف أن في داخل الحرية حريّات شتّى. ولكن هذه الحّرية التي لا

تُحصى، إن طالبنا بها، أو إن طالب بها أيّ انسان بأجمعها، لساد الجنون حتماً.

بيد أنه لو كانت لنا حرّية الإساءة الى الغير فلا يحقّ لنا أن نسيء اليه، بل علينا أن نفرض على نفوسنا، باختيارنا، حدوداً وقيوداً، وأن نجعل لقدرتنا تخوماً.

هكذا تلتقي وتتوازن الحرية مع الأخلاق، الحرية مع القانون، الحرية مع الحكمة، الحرية مع العدالة.

ولا يفوتنّا أن نضيف إلى هذه الحواجز المهيبة الرحمة والإحسان والحب.

لئن غامرنا بقول كلمة عن الحرية، فلكي نطالب، كما يجب، بحرّيات شرعية لا بدّ أن ننالها.

لكن شريطة أن نتذكّر أن طريق الضلال وطريق الحرّية يسيران جنباً إلى جنب.

حول التاريخ

أوّل آذار ١٩٤٤

لعلّنا نشهد نهاية التاريخ. ذلك أن تاريخ المستقبل ستتولاّه شركات مُغفلة (وعالمة). (هذا اذا تخطى زماننا الحاضر نمط الحياة الاجتماعية الراهن). وقد يكون موضوع مساومات ومزايدات.

حيال تراكم الأحداث والخدائع من سيجرؤ على امتهان التأريخ؟ من يقوم بسرد الدوافع والوقائع ويزعم أنه سرد حقيقيّ؟

أيّ مُشترع تحرّر من الأوهام، أيّ مُسنّ أشيب، يَدّعي قَدْراً من المعرفة يمكّنه من تسجيل ما رأته الأرض وما تراه؟

إذا كانت غاية التاريخ رواية مسيرة المجتمعات البشريّة فان مهمته تتجاوز حقاً طاقة البشر.

قال بانفيل بما معناه: ان التاريخ ليس فنّ التذكّر، بل فنّ النسيان. فالنُزر الذي حُفظ كم ضاع منه! وكم تختلف الحقيقة الرسميّة، او الظاهرة، عن الواقع وعن الحياة!

دخلت ألمانية الحرب من أجل دانتزيغ ومن أجل الممرّ. وكلّنا يعلم أن هذا غير صحيح. ولكن هذا ما يُعلّمه الألمان. وإيطالية، قبل جنونها وبؤسها، كانت حياديّة. وكلّنا يعلم ما كان يعنيه «عدم المشاركة» في الحرب.

إن التأكيدات وكلام الشرف والقَسم وحتى التواقيع كلّها جزء من

ترسانة الكذب. إذ الفنّ الرائع قوامه خداع ومباغتة، أي أن نعلن عكس ما نُضمر ونؤكد بجرأة على ما لا نؤمن به.

تلك هي الطريقة التي طبّقتها البلدان والنُظم التي تحيا في نطاق السرّ. ولا تهدف، من البدء حتى النهاية، الاّ الى قتل الحقيقة.

إن مؤامرة كبيرة تحاك، منذ زمن بعيد، ضد المؤرخ، وكل شيء يتحالف عليه بحيث لا بدّ من عرّاف للخروج من المأزق. ولا يبقى لنا الاّ أن نكتفي بالرؤى الفسيحة والمخارج الحدسيّة التي تميّز بها ميشيله مثلاً. الاّ ان ليس كل مؤرّخ من طينة ميشيله! بيد أننا نزداد الحاحاً في طلب الحقيقة فيما هي تهرب منّا.

إن التاريخ الذي يُعرف بـ«المدني»، تاريخ الأموات والأحياء، أصبح ينافي المدنيّة والانسانيّة أكثر من أي تاريخ. فقد قضى عليه التاريخ الطبيعي لأنه غريب عن الإنسان وعن خداعه، ولأنه بمنحى من مناوراته ولا يلتزم دهاءه ومقاصده الخفيّة وتحفّظاته.

عن الموسيقى

٢ آذار ١٩٤٤

يا ما أروع البيانو وسط الآلات الوتريّة! كيف لا نتكلّم عن الموسيقى حين تغمر رؤوسنا ألحان موزار وبتهوفن؟

إن قدرة الموسيقى لسرّ من الأسرار. أين ينابيعها وأين أنهرها؟ في أي لانهاية ملائكية؟

عندما نسمع أوركسترا تعزف نقدّر الجهد الشغوف الذي يتجلّى في ولادة نغم، في ترابط أنغام خارجة من صدور صامتة تنصهر كلّها في رنّة وحدى. إن من أسمى وجوه الإنسانيّة الحديثة هو هذا. هو إشراك جماعة في خلق هرمونيّة تنطلق من صمت مالارمه (... «موسيقية الصمت» ...) لتبلغ جوبيتر المُدويّ.

اليوم، ومن مدينة مُدمّرة، تحاول الموسيقى ان ترتفع بعذوبة أشدّ وتعمل، في الوقت عينه، على إثارة مشاعر الأم وعلى تسكين الألم. فلعلّ الإنسان يسعى بنشيد الكمنجات أن يستر صخب دمار الأبنية والأسوار والصخب الذي ينذر بانهيار الإمبراطوريات.

كان أورفيه يبني بقيثاره المدن. اما الآن فتموت المُدن على إيقاع الكنّارات والمزامير. وهذا جزء من مهمّة الموسيقى زمن الحرب، الموسيقى المعبأة في لباس عسكريّ، تبثّها الموجات في ساعات محدّدة، ولكنّ رسالتها ليست هذه.

إن للموسيقى مَهمّة لم تؤدّ بعد كما يجب.

ادهش وأعجب ما في الموسيقى انها تقرب بين أناس لا يقرّب بينهم أي شيء، بين عقول ولغات وآراء تتنافر في كلّ مجال. وحين تتعالى الموسيقى الحقيقية، الجميلة، الإلهية، فإنها تجرف كل شيء، تمسك الإنسان من أحشائه وتسيطر عليه. تماماً كالجوقة الملائكية الأولى.

بعد هدنة الله[1] ما أدّي على الأرض دور أهمّ. لذا نخصّ، على حقّ، الموسيقى المقدسة بمقام رفيع.

حين لا تلبّي الموسيقي رغبات تحطّ بالنفس البشرية ولا تتوخّى الاّ اللذّة او الدعوة إلى اللذّة، فإنها تأتي، ولا ريب، من علياء اللانهاية.

في عالم يحترم نفسه ينبغي أن تنتشر الموسيقى الرائعة انتشار أشعّة الشمس.

لا يجوز، بأي ذريعة حتى لأجل رقي الحيّات، أن تسمح دولة متحضّرة بنشاز الأنغام لمجرّد إرضاء آذان بربريّة.

---

١. هي هدنة حرّمت الحروب الإقطاعيّة في بعض أيّام الأسبوع.

تأمّلات المساء

٧ آذار ١٩٤٤

إن عظمة هذا الزمن نعجز عن إدراكها. ولا نستطيعُ الحكم عليها لأنّنا في غمرة اضطراب. وهذا الأمر يصحّ في كلّ زمن. لأن الأحداث التي نعاصرها، مهما عظمت، لا تعلن أهمّيتها. فكم من واقعة سامية ظلّت مجهولة وتنتظر بصبر أن نتذكّرها. ولكن ما من مرّة انخفض ذكر الشجاعة كما في حاضرنا.

مع أن كل يوم من أيّام هذه الحرب يشهد بطولات بقدر ما شهده كلّ حصار طراوده وعرفته حرب المئة سنة.

هذا فضلاً عن أن الأسطورة ماتت. الأسطورة التي كانت، في ما مضى، تُعزّز البسالة والحبّ.

أما الآن فقد ولّى عهد الأساطير. ومضت الجنّيات مع الأسياد الحسان ومع مرلان الساحر وفرسان الزمن القديم.

أسوأ ما في حروب اليوم هو امتدادها خارج نطاق السرّ، في رهبة الآلة التي تشوّه وتقتل. فقد ولّى عهد السيوف والدروع. ففارس الماضي هو اليوم عاري الصدر في داخل الدبابة التي حلّت محلّ الحصان، حصان الحرب الجميل. ومن بعيد تحصد المدافع الثقيلة، على اختلاف أعيرتها، كل ما حولها، متسترة كما يتستّر البؤس. ويبدو أنه لم يبق مكان للقتال الفردي، للمجد الشخصيّ، وللأبهة.

مع هذا، هل برزت من قبل بطولات أكثر من اليوم على الكرة الصغيرة المسكينة التي تحملها؟

هجوم في بولندة، هجوم في أوكرانية، حرب في إيطالية، حرب أهلية داخل الحرب الأجنبية في البلقان، هجوم في برمانية، فتك في الجزر البعيدة، اختراعات لم يسمع بمثلها، قنابل زنتها خمسة أو ستة أطنان. وهذا التآلف الجهنمي بين جميع الأشياء المذكورة يخنق بطولة الإنسان ويخفيها عن الأنظار.

ما مرّ زمن كان فيه الموت أرخص منه في أيّامنا. لأقل سبب وبدون ضجة يموتون بعد بطولات عجيبة وغالباً لا يدري بهم أحد.

لن نقول أن إنسان هذا القرن لا يعرف أن يموت. فهو قد تجاوز كل حدّ حين اكتفى بميتة مغمورة. وهل ثمّة أعظم من مثل هذا التفاني في سبيل الوطن والشرف؟

تصوّروا وقدّروا كم ينبغي من سموّ في النفس، في نفس هذه الشبيبة التي تحارب، لتغزو بطولتها بشغف الوحدة حول الموت، حول ميتات ما واكبتها ندّابات وألحان جنائزية وحظّها الوحيد أن تخالط بين تخيّلات الليل والريح وانغام شوبان وبتهوفن الشجيّة.

إن هذا العصر، بعد عصر الحجر والحديد والنحاس، عصر الآلات الذي صفّح كل شيء ناسياً الروح والذي قسّى كل شيء، محطّماً القلوب، ليس، بالتأكيد، أجمل العصور ولا أشدّها تأدباً وسخاء وعنفواناً. انه عصر الفتى الفتّان الذي ما أرضعته الأمّهات حليبها الا لكي يتعلّم أن يموت بلا صراخ، في ليلة مشتعلة بالقذائف في سماء مدينة ملعونة.

بئس هذه المدنيّة!

حكاية قديمة

٩ آذار ١٩٤٤

هل يشكّل الشرق والغرب إنسانيّتين متمايزتين؟ كان الغرب ما يزال قفراً حين كان بعض الشرق يكتظّ بالسكّان. وكلّ ابناء الغرب من أحفاد آسية.

ثمة عادة سيّئة جعلت من الغرب نقيض الشرق. وهذا من اختراع العقائديين والمستعمرين والشعراء. ما لنا وللشعراء الذين يستبيحون كل ضروب الهوى، ولكن يبقى الآخرون، اولئك الذين يعبّرون عن رؤى عقولهم وابتكاراتها تعبيراً سياسياً.

منذ قسم تيودوسيوس الأمبراطورية الرومانية قسمين ارضاء لولديه، أصبح التمييز بين الغرب والشرق ملك التاريخ. وقد أقرّت الجغرافية هذا التمييز من دون اعتراض.

إن مغامرة هونوريوس وأركاديوس[1] جلبت على العالم ويلات وآلاف المجادلات. فمنذ عهد هذين الامبراطورين أخذ كل من الشرق والغرب ينظر احدهما إلى الآخر نظره إلى غريب عنه. وقد سبّب هذا النزاع الأخويّ الأخرق اسوأ العواقب.

أمّا اليوم فقد استعاد العالم وعيه فأسدل ستار النسيان على نزاعاته

---

١. Honorius: أول إمبراطرة الغرب عجز عن صدّ هجمات البرابرة على رومة.
Arcadius: بكر أبناء ثيودوسيوس، إمبراطور الشرق.

وتخلّى عمّا كان قد ألفه من مصطلحات. ففي الواقع ما هو الغرب؟ ألسنا نحن، نسبة إلى شنغاي وسنغافورة، غربيّي الغرب الأقصى؟ أليست أوروبة، نسبة إلى أميركة، شرقية؟ فمن الغرابة اذن ان يطلق اسم «الشرقي» على «المغرب» ومعناه الحرفي مكان الغروب وبالتالي بلاد الغرب؟

أن تشرق الشمس كل يوم من الجهة عينها فلا غضاضة في هذا على أحد. وليس ذنبنا نحن أن تُنسب الشمس إلى قسم واحد من الكرة الأرضية. وهل ذلك يولي المغرب شرفاً أسمى من المشرق؟

هذا ما يجدر أن ينظر اليه كل إنسان متى تسنّى له أن يخرج من قريته ويكوّن فكرة عمّا تعنيه القارّات والأمم. ولعل أصحّ تسمية للشرق الكلاسيكيّ هي مركز ثقل العالم القديم. فبهذه الصفة يستطيع أن يذكّرنا بأنه أعطى الكون دياناته الكبرى. فهو أول ما انقطع عن عبادة الأوثان وعبد الله الأحد، ونقل إلى الغرب المتجبّر إيمانه وحتى أساس حضارته.

لكن تسمية المشرق والمغرب تظل تسمية نسبية جداً.

ناهيك بأن الإنسان يزيل المسافات شيئاً فشيئاً: مسافات العقل والقلب والمادّة. وليس ثمة ما يبعث الدهشة من رحلة حول العالم بعد أن أصبح هذا الأمر كأنه لعبة اطفال.

لقد طوى الزمن هذا التباعد. فحين تتآلف جميع البلدان لن نعود ندهش من خصائص الهند والصين الغريبة بالنسبة لنا.

منذ عهد مونتسكيو بات الناس في أوروبة قلّما يتساءلون كيف يمكن للمرء أن يكون فارسياً(٢).

٢. إشارة الى كتاب مونتسكيو «رسائل فارسيّة».

الحياة والشرائع

٢٠ آذار ١٩٤٤

لا نستطيعُ أن نجعل شجرة المانغو تنمو في أستكلنده ولا زهرة إدلويس[١] في الصحراء. لأن النبات لا يحيا ولا يُثمر الآ في المناخات المؤاتية. وهكذا الشرائع.

إن لمن الاعتداد المُفرط بالنفس أن يدّعي أحدهُم فرض شرائعه على أناس لم يتهيأوا لها، وأن يُلبس الأكتاف الإستوائية فراءً سكنديناڤياً. وحدهم الحالمون الناعمون يبغون هذا. الحالمون الذين، بفعل انصرافهم إلى العلم المجرّد، يُرعبون معاصريهم.

لا تُسنّ الشرائع في المطلق لأنها توضع للبشر. فالطبيعة المميّزة بالشعور الإنسانيّ، ابنة العناية السماويّة، جعلت الشريعة الطبيعيّة تتّسم بطابع انساني. وفي ما عدا الانحراف الفطريّ، او التشويه الوراثيّ (وقد يكون جماعياً) فإن للشريعة الطبيعيّة وقعاً يكاد يكون مشابهاً في قلب كلّ انسان.

من البلبلة أن ندّعي قدرتنا على أن ننقل الى الغير باسم الذوق (وغالباً باسم اللذّة) عادات بعيدة عنه، وقوانين بكاملها بإسم المعرفة والهناء. فالحرّ والبرد يتحكّمان إلى حدّ بعيد، بالبشر وبالشرائع. فما من تشريع لا يصدر عن مناخ معيّن وعن درجة حرارة متوسطة.

١ . Edelweiss: زهرة قطنيّة تنمو على جبال الألب.

من حيث التشريع، لا نجد، بعد القانون الطبيعيّ والوصايا العشر، شريعة كلّية الا «العظة فوق الجبل». **ولكم نُعجب بايجاز النصوص المقدسة، ولكم جوهرها رحب لأنها ملخّص دقيق، وقد وضعت «لكل الأزمنة والعوالم»**.

في هذا العصر، تتكاثر الشرائع إلى ما لا نهاية، بحيث أصبح اليوم وزنُها مُرهقاً. فما قد تكون حالها في غد؟

«لا يُفترض بأحد أن يجهل القانون». يا له من خبث يتضمنه هذا الأمر! ذلك أن لا أحد، بعد الآن، يستطيع أن يعرف القانون، كل القانون، والقانون التامّ يجهله الجميع.

إن لم ينضبط البناء التشريعي وإن لم يعتدل فهو، على المدى الطويل، سيقضي على كلّ شخصية وكل حياة. فالنزعة العلمية والفريدة التي تجعل الشرائع غزيرة غزارة مياه المطر انما هي نزعة فريسيّة ولا انسانية.

في دولة الغد يجب أن نتطلّع إلى حافظ للشرائع، وفي مقرّ للتشريع، إلى حكماء متفوقين يكبّون على النصوص ليستأصلوا منها اليباس في كل فصل، كالرهونات المسدّدة والزحمة العقيمة في حقل التبحّر بالعلم والأوهام.

إن التماثل تجهله الطبيعة.

«ثلاث درجات ارتفاع في القطب تطيح بكل اجتهادات المحاكم، وخطّ طول يتحكّم بالحقيقة ...».

الكتابات النثريّة اليوميّة

٢١ آذار ١٩٤٤

لا بأس أن نحدّث قرّاء صحيفة يوميّة عن أهمّ المواضيع. فثمّة اعتقاد خاطئ سيء يحصر اهتمام القارئ بالأمور العادية العارضة. ومجرّد التسليم بهذا الحكم المسبق فيه إهانة للمواطنين ويسبّب إفقار الجميع على صعيد المعرفة.

ألا يجوزُ البحث في العلوم السياسيّة والآداب الجميلة إلاّ في المجلات المتخصّصة؟ وفي المناقب الاّ في دروس الأخلاق؟ لماذا علم الفلك، مثلاً، وهو من أرفع العلوم، يظلّ غريباً عن الجماهير، على الأقلّ في شقّه الملخّص والسهل المنال. فلو تناولته الصحافة لازداد عدد الذين يتشوّقون الى السماء لتأمّل عوالمها المكوكبة في الليالي المقمرة. والفنون التي شاعت في الأوساط الشعبية، في الزمن القديم، فهل نبقيها محفوفة بالأسرار؟

لماذا لا نقدّر القارئ حقّ قدره ولا نوليه الا القليل من العناء، ولا نطريه الا في أحطّ مواهبه؟ فهل قيل ان الصحافة تميلُ عن قصد، أو عن لامبالاة، الى الجهد الأقلّ؟

فثمّة أشياء كثيرة تقال، حتى في زمن الحرب، بل خصوصاً في زمن الحرب، لكي لا نبتعد كثيراً عن الأحداث المهمّة، عن المغامرة البشرية والاجتماعية الخطيرة التي تنمو في غمرة القلق والدماء.

ينبغي أن يتعوّد المواطن الذي يقرأنا أن يجد في ما نكتب غير ما يسلّيه او يضلّله. أوليس من طوالع النِعَم ان نستطيع تقديم قراءة يومية من خيارنا،

الى آلاف الناس مع ما يستتبع هذا الأمر من مسؤولية أكيدة. مسؤولية تحتِّم علينا أن نسمو بأنفسنا وبقرّائنا معاً.

لا يجوز لنا قطّ ان نتهرّب من معالجة موضوع عظيم ولا شؤون أقلّ أهميّة. فكما ان لا مهنة حقيرة بالنسبة لقدسية العمل كذلك لا موضوع يُعتبر تافهاً مع أصالة التفكير. فالمهمّ في كل هذا الطريقة التي ننظر بها الى الإنسان والحياة.

لقد انطوى عهد الصحف الرخيصة التي تنال من الكرامات، فللصحافة الحقيقية اليوم اتّجاه آخر. فحين نقدّم للقارئ، في الصباح أو في المساء، مادة لها وزنها، فإننا قد نؤثر على مجرى تفكيره وعلى مجرى يومه.

إن هذا لأمر جدّي يستحقّ أن نتوقّف عنده ولو قليلاً.

ربيع

٢٥ آذار ١٩٤٤

بعض سطور على وُريقة تُتيح تدوين حالة نفسيّة.

أنجد فينا حقاً الانسان عينه كلّ يوم؟ إن كل شيء يتغيّر مع تغيّر الساعة، مع تغيّر المنظر وانقضاء الفصول. ونتغيّر نحن مع الحركة الأبديّة.

أيمكن أن يكون هو عينه انسان الشتاء الكالح وانسان الربيع المشرق؟ إن للنور والليل والسكون والريح، والبستان الزاهر وحديقة الخريف المحزنة سيطرةً شديدة علينا، ونحن نصير، بالرغم منّا، الى ما صارت اليه. ففي كل هذا جراح لا تُرى وأهواء خفيّة، لحظة السأم والشكّ، وفترة التوثّب.

هوذا الظلّ وها هي الشمس: تقلّبات شتّى بين ما نصبح عليه وبين ما نحن فيه. بوادر طاقة وعزوف يتهيّأ. أروم شيئاً في بهاء الصباح ثم أرغب عنه في ظلمة الليل؛ كنت أحسبني بطلاً فإذا بي رجل وحسب. إن ساعة الوهم وساعة زواله متقاربتان.

في السماء قوى لامتناهية يتجلّى إشعاعها في كلّ مكان من الطبيعة. أوليس كل شيء قوى كذلك؟ قوى تلتقي وتخترقنا وتزعزع، بمرورها، كل الخلايا التي نتكوّن منها.

ونفسنا أوليس لها هي الأخرى وجوه لا تُعدّ؟ وجه الزهد ووجه الشهوة، وجه الألم ووجه الحبّ. من أجلها يأتي الربيع وتزهر الستاريّة من جديد، وتتعالى من فوق الجدار أصوات أطفال وضحكاتهم، ويختلج

كون بأسره ويهتزّ. وها إنسان الأمس، الإنسان المتعب الذي لا يتميّز عن الأشياء الجامدة، ها هو يحيا من جديد.

وها هوذا، وقد تخلّص فجأة من متاعبه العميقة، يبتسم للحياة، مع أنه لا يطلب منها شيئاً.

ها الربيع قد عاد، فعسى أن لا يستقبله إنسان الأمس فينا!

العشاء السرّي

خميس الأسرار ١٩٤٤

إن جداريّة ليوناردو «العشاء السرّي» التي كثيراً ما أُعيد رسمها يجبُ أن نضعها نصب أعيننا هذا الصباح. نضع هذه الجداريّة أو سواها من روائع جيوتو أو رافائيل، او فرا أنجيلو أو ڤيرونو. ولنا الخيار بين هؤلاء الأعلام، بين كل مفاخر الشعوب.

بيد أن أروع مشاهد العشاء السرّي ينبغي أن نسعى اليوم اليها في المعابد. فهناك تمحو الذكرى العظيمة الأحداث ويطول الإرث الرائع الأفكار والآلام. إن سرّ هذا العشاء الأخير مع الرسل، بعد الصور والكنايات، يقرّب الإلهي من البشريّ بحيث يغمرنا الانبهار. فهل كان بمقدور أحد ان يبتدع ذلك الاّ سيّد الحياة؟ حقيقة الطعام والشراب الهائلة تلك واختيار الكرمة والقمح وحركة الكائن اليومية في طلب «القوى».

إنّنا لنذكر بدهشة «صمتَ الألوهة الأبديّ» الذي عزاه ڤيني[١] الى هذا الحضور، هذا الحضور العجيب الذي يفجّر الإلهام كسيل جارف.

أنّى لنا ان ندّعي ملامسة الالهيّ ان لم نتوجّه نحوه؟ وكيف نأمل هذه الزيارة او هذا النداء طالما اننا بشر كسائر البشر؟ وحدة مظلمة ضئيلة نجسّدها في حشد أموات وأحياء عجيب؟ وكيف نطلب نعمة باسم الضعف

١. إشارة إلى قصيدة Alfred de Vigny.

والشكّ فقط .

إن مسيرة الزمن تفرض نفسها كمسيرة نحو الإلهيّ، نحو البداية التي تختلط بالنهاية، نحو المدى الشاسع الذي يبدو لنا أشدّ وقعاً على الحسّ كل نهار، وكلّ ليلة أعمق .

كلّما اتّسع الفضاء وامتدّ، من خلال المرصد، تتعاظم الأحداث الدينيّة التي تحتفي الأرض بذكراها . وأمام أعيننا الهزيلة، ما وراء المحدود الذي نكتشف أبعاده بذهول، يتّخذ الالهي أحجاماً لامتناهية تأثيرها ألف مرّة أشدّ .

ما رسمه ليوناردو ان هو الاّ توجّه الالوهة نحو خليقتها عن أقصر طريق، ان هو الا تملّك يُزيل الغياب والنسيان الى الأبد .

قيامة الموتى

٨ نيسان ١٩٤٤

تلك هي ما ينتظرها، عاجلاً ام آجلاً، كل انسان. فما من مكان يصلّى فيه إلاّ ويبشّر بقيامة.

منذ الماضي السحيق والبشريّة تحيا على هذا الرجاء. فثمّة جزء منّا يتحدّى الموت، نشعر به تماماً. فحين نغمض عيوننا، كما لو في النوم الأخير، نحدّث أنفسنا باننا نستطيع ان نستمر بالحياة بلا جسدنا، أن نرى بغير عيون أجسادنا، أن نحبّ بالروح أكثر مما نحبّ بالقلب.

في أعماقنا ندرك عناصر خلودنا. وبتفكيرنا نستطيع ان نتأمل صورتنا المادّيّة، كما لو كانت صورة كائن مجهول، كما لو كانت لوجه غريب. ويبدو لنا ان قوانا العليا، أي نفسنا، تستطيع، من دون ان تتلاشى، او تختفي، ان تسكن جسداً يختلف عن جسدنا. وهذا نشعر به ونقوى على تفسيره. لكن فوق أسفار الحكمة والفلسفة ثمّة واقع القيامة التاريخيّ، هذا الواقع الذي قال عنه پاسكال: «إني لا أتردّد في تصديق الحكايات التي يتعرّض شهودها للموت».

إن انبعاث الجسد (اضافة الى خلود النفس) يُذهل ويفاجئ لأول وهلة، إذ أنّى لحفنة الرماد هذه، الغبار، الظلّ، وهذه الذكرى (حين نفكّر بمن مات في الماضي البعيد) ان تولد من جديد، ان تحيا من جديد. ولكن هل هذا الأمر أصعب على الاله الأزليّ من استخراج سنبلة من حبّة قمح او كائن

من العدم؟ إن القدرة الخلاّقة تتخطى افتراضاتنا، لأن القوّة الخارقة التي صنعت الكون هي حتماً سيّدة الموت والحياة.

في عيد القيامة نحتفي بذكرى الانتصار النهائي على الموت، نحتفي بغلبة النور على الظلام. وانطلاقاً من هنا يمكننا ان ننتظر بهدوء عودة اولئك الذين مضوا، ونواجه مصيرنا بلا وجل.

مليكات

٢٦ نيسان ١٩٤٤

منذ أيّام بلغت الأميرة اليزابيت الانكليزية الثامنة عشرة. وبهذا العمر يمكن لها أن تعتلي العرش في المملكة المتحدة. هكذا فعلت فكتوريا، ابنة الدوق كنت، حين خلفت عمّها غليوم في الملك، سنة ١٨٣٧.

إنه لدليل حضارة رفيعة جداً، في عصرنا، ان يعرف شعب عظيم، ورجال ان يكونوا جميعهم مواطنين عظماء، يخضعون لسلطة امرأة. وهي سلطة ملكية اسمية لأنها «تعدّلت كثيراً» كنظام الملكية نفسه، كمعزف باخ، لكنها رائعة.

لا بدّ من الوثوق بأهمية التقليد والاستقرار (حتى أكثر من الوثوق بالوراثة) للتسليم بهذا الأمر. فالقانون الساليّ، الذي حظّر توريث الحكم للنساء ما استهوى الانكليز، مع انه سرى في فرنسة. انه قانون قديم، ولا ريب، سنّه الفرانك الساليّون، قانون «بربريّ».

لهذا السبب كان لانكلترة ملكات وما كان لفرنسة الأوصيّات على العرش، كما كلّ الممالك حين يكون الملك قاصراً. ويا لها من مفارقة غريبة! كان دائماً باستطاعة امرأة في فرنسة ان تكون وصيّة على العرش، في عهد الملكيّة، ولكن لا ملكة. وفي ما خصّ الإنكليز قد يكون من الأصحّ ان يُبرز الفرق بتسميتها: «مليكة–ملك» وثمة شعوب أخرى غيرهم كذلك، كالهولنديّين واللوكسمبورجيين، هذا اذا اغفلنا ذكر ممالك النحل.

ونتساءل ههنا هل ان العُرف البريطانيّ هذا لم يعزّز المؤسسة الملكيّة باتيانه، دورياً، الى السلالة الملكيّة، بحيويّة دم جديد عن طريق الاختيار.

بما ان «الملك يملك ولا يحكم» فلا ضير أن يكون ملكاً او مليكة! فآداب السلوك وحدها هي التي تجعل الملكة أفضل من الملك. وهذا لا يعني قطّ ان النساء يجهلن فنّ الحكم. فقد برهنت العكس، وبكلّ جدارة، اليزابيت وماري تيريز، وكاترينا، وما عرفت انكلترة عهداً أشرف من العهد الفكتوري، ذلك الحكم الامبراطوريّ الذي دام ٦٤ سنة.

ولو عدنا الى فرنسة لاستطعنا ان نضع لوصيّاتها على العرش لائحة مُهيبة. من بلانش دو كاستيل الى آن ديتريش، مروراً بآن ده بوجه وكاترين وماري ده مديسيس، ولا نذكر من هؤلاء الوصيّات الا العظيمات. وكانت آن ده بوجه، ابنة لويس الحادي عشر، على حدّ قول أبيها، «اقلّ النساء جنوناً في فرنسة». وقد جعلت من وصايتها على العرش عهداً ملكياً مبيناً. أمّا سائر الوصيّات فكنّ اجنبيّات: كنّ اسبانيتين وايطاليتين.

ان فرنسة التي طبقت القانون السالي الذي حرّم وراثة العرش على النساء قد انسجمت مع الوصيّات على العرش فلا نرى لماذا لم تستطع «بنات فرنسة» ان تملكن بملء الحق. ولم يكن ثمة ما يحول دون ذلك الا الحكم المُسبق.

في أيامنا هذه قد تُقبل الملكة بسهولة أكثر من الملك. ذلك ان عنفوان الرجل ينحني أمام الضعف أفضل مما ينحني أمام القوة.

خاطرة أحديّة

٣٠ نيسان ١٩٤٤

إن هذا القرن الذي يسجّل كل شيء ماذا تراه ينتزع من النسيان؟ فما مرّ زمن عمل فيه الكتبة كما يعملون الآن. ومنذ ثلاثين سنة لم تُطع المادّة البلاستيكية قطّ، في ما مضى، الى مثل هذا العدد من الأصوات ولم تتلقّ بهذا القدر من العلامات. وقد لاحظنا ذلك منذ عهد قريب: فكميّة الوثائق الحقيقية او الغشّاشة تتجاوز الطاقات البشريّة. فكيف جرى هذا الأمر؟... سنظلّ نتساءل الى حين ننقطع عن التفكير به.

يا للنسيان من مهدّئ فعّال! نسيان ما يُسيء إلينا فقط.

أمّا عدا ذلك، فالخير كل الخير في الاستذكار، في تغذية الشعلة، في ان نبقي حاضراً نصب عينينا كلّ ما كان لنا مصدر فرح ولذّة وخفقان قلب.

وهكذا علينا أن ننسى كما علينا أن نتذكّر. وليس في هذا أي تناقض.

إن جامعي الغيظ والحسرات لقوم تعساء. عادوا لا يعرفون أن يعيشوا. يقضون وقتهم في طحن ما لا يغذّي. ومستقبلهم هو بين الأنقاض حتماً.

على من يتميّز بشخصية بارزة أن يتذكّر، طبعاً، من جَرحَه، ولكن من دون أن يبغض أو يثور، بل ضمن حدود الصفاء والحكمة والصبر، كما لو كان الأمر يتعلّق بغيره، يتعلّق بنجيّ أو بشاهد؛ وبَدل رغبة الثأر والانتقام عليه ان يتحلّى بحدّة إرادة العدل.

عليه أن يتذكّر ليُحبّ، ليذود عن وجوه وعمّن غابوا عنه ضدّ غمرة

الليل ...

أن يُشعل من جديد الأضواء المنطفئة. ويوزّعها على حشود الظلام.

أن ينسى الآلام والفواجع، ولو من أجل، أن يشفى.

إن انساناً متوسّط الحساسيّة قضى العمر كلّه وهو يتبصّر في خيباته وفشله ومصائبه، هل تراه يجد بعدُ لذة ما؟

يجب أن ننسى. يجب أن نتذكّر. وعلى هدي خفقات قلوبنا ندرك بسرعة ما يجب أن ننتزع من الظلمة وما نتخلّى عنه للّيل.

حبّ الوطن

٣ أيّار ١٩٤٤

حدّثتنا سبعة أصوات، في أسبوع مضى، عن خدمة الوطن. ستة أصوات رجال متنوّعة الإيقاع بحيث يُقارن مجموعها بموسيقى سداسيّة الآلات.

حين تختلط الأصوات البشرية، بانتظام، تكوّن النشيد، وحين تتتابع بانسجام تشرع الفكرة.

هذه الأصوات الصادرة عن موحيات مختلفة فسّرت وأطرت هذا الشيء العميق: شعور الإنسان حيال وطنه. كهنة وعلمانيّون، القاضي والشاعر ورجل القانون والفيلسوف، وكلّهم سديدو الرأي وحكماء أدّوا شهادتهم بصدد حقيقة محسوسة هي الأرض الأم، أرض الموتى والأحياء، الأرض الرؤوف أو الجاحدة، إنما دائماً الوطن الحبيب، الطافح بحنان الأمومة.

منذ بدأ تحضير الأسبوع الاجتماعيّ الذي انصرم، دعت أسباب لإسماع تلك الأصوات حول هذا الموضوع. وفي الوقت الحاضر تبدو هذه الأسباب أشدّ إلحاحاً. فمن كرّم وطنه عليه أن يفهم أن غيره يكرّم وطنه أيضاً فيغمره بعطفه ويريده حرّاً، عزيز الجانب، يتعلّق به كما بمهده، كما برقاده الطبيعيّ في نومه الأخير.

إن حبّ الوطن، كما قيل لنا ستّ مرّات، واجب علينا؛ بل ضرورة تكوينية بنوع ما. لأن أبهج المناظر، حيثما كانت لا تعزينا في بعدنا عن

أرواح جدودنا الحامية لنا؛ ويا ما أفظع عقاب انسان بنفيه عن وطنه!

نعلم حقاً أن ثمة عصبية قومية تعبّر عن تطرّف في الوطنيّة، كما نعرف مواطنين يتكيّفون مع استعباد الآخرين لهم.

نحن نرفض هاتين النزعتين لأنهما مقيتتان بنظرنا، فحبّ الوطن لا ينطوي على بغض. ومن الضعف ان نعتبر الأجنبيّ عدواً لمجرّد كونه أجنبياً، كما في عهد البربرية؛ بل علينا، بالعكس، ان نحتفي، وربما ان نُعزّي، الزائر أو الضيف الذي يؤلمه الغياب، البعدُ عن وطنه. ففي هذه الطريقة الأخوية نتجاوز الأرض، بدون ان نمسّ شعور أحد، نتجاوز الوطن والقرية والمدينة والمقاطعة لكي يصبح مجرّد وطن لجميع البشر.

لقد كانت لهذا الأسبوع الاجتماعيّ حول الإخلاص للوطن خاتمة طبيعية تجلّت في الدعوة الى إخاء يتخطّى الجدار المشترك.

ولن نضيف الى هذا الآكلمة واحدة، لكنها كلمة إلهية هي «قريبك كنفسك».

ملاحظات حول الجغرافية

٨ أيّار ١٩٤٤

لكم تمنينا لو جرى تعليم الجغرافية بطريقة أذكى. ففي هذه المادة قليل عدد الأساتذة المميّزين. ينقصهم النظر المباشر الى الأمور لرؤيتها بوجهها الصحيح.

يجب ان تكون لأمثولة الجغرافية أهميّة الرحلة. الاّ انها، في الغالب، تقتصر على جهد مرهق للذاكرة. مع ان بإمكاننا ان نقوم برحلة حتى حول غرفتنا لو ساعدنا المخيّلة وهي تعرف ان تذهب سريعاً وبعيداً.

إن في الجغرافية من الحلم والشعر أكثر ممّا في اي علم آخر. هي الفضاء، هي البحر، هي الغابة، هي الأدغال، هي الجبال والمثالج والصحراء الكبرى والميسيسيبي. وفي وسط الطبيعة الضاحكة او العابسة، في الضباب او في الشمس، تقوم العواصم والمدن. وكل هذا، رغم الجمود الظاهر، متحرك، عجّاج، طنّان، في صيرورة دائمة.

في المدارس آلاف الأسماء تتردّد تكراراً ولا توقظ المخيّلة لكأنها أرقام تُجمع ولا تفتح العيون على وجه الأرض.

مع أنّ الجغرافية بالغة الأهميّة في تنشئة العقل.

على من يعلّم الجغرافية أن يتحلّى بروح المسافر وفضوله وأن يعرف كيف ينتقل بالفكر والشعور الى جوانب خريطة العالم كما يُديرها اليه مصوّر الكرة الأرضيّة.

وأي صفٍّ لا تُدرّس فيه الجغرافية هكذا إن هو إلاّ جحر خلد.

ان الخرائط المسطحة المعلّقة على الجدران البيضاء تبرز بُقعاً ملوّنة تُدخل قليلاً من البهجة على القاعات المغمورة بالسواد، لكنّها تفتقر الى حيويّة أكثر في سبيل تنشئة الولد.

أي معنى لتعداد جافّ للبلدان والمقاطعات والأقاليم والمُدن والقرى؟ أي معنى لمجموعة باردة من المعالم تحمل أسماء العواصم والمُدن الثانوية؟ ألا تجدرُ زيارة هذه الأراضي وأولئك السكان الذين يعيشون فيها والتنعّم بمشاهدها؟

إن أمثولة الجغرافية تدعو أولاً الى رؤية الفضاء؛ فينبغي اذاً فتح النوافذ حين لا تغزرُ الأمطار والوقوف أمام الأفق الفسيح.

«للولد المولع بالخرائط والصُور المطبوعة»

«يساوي الكونُ قابليّته الرحبة».

إن معلّماً يفتقد مثل هذه الرغبة ليستحقّ الشفقة فعلاً.

الجغرافية هي، أولاً، وصف للأرض، وهي تستلزم بعض الفنّ من الراوي؛ لأن للتخيّل نصيبه في هذا السياق طالما أنه لا يخون الحقيقة.

أوليس من الطبيعيّ أن تُدرج في درس الجغرافية روايات الرحّالة الجميلة عن انطباعاتهم وبعض كتابات الأدباء الملهمين؟

وهل يُعرفُ وجهُ الهند حقاً بدون كبلنغ، على سبيل المثال؟ وكيف يطوف الطلاّب حتى في هذا الزمن، حول العالم بدون جول ڤرن»[١].

---

١. إشارة الى كتابه «جولة حول العالم في ثمانين يوماً».

لمناسبة عيد جان دارك

١٣ أيار ١٩٤٤

في كل التاريخ، طوال التاريخ لم يُشهد حدَث مماثل.

ان مغامرة فتاة فرنسة هذه حيّة في ذكراها بحيث تثير دهشتنا كلّما باعدها الزمن. ففي ما عدا تجسّد المسيح، مركز كل شيء، ليس ما يعادلها روعةً.

هذه الفلاّحة، ابنة السابعة عشرة التي زمجرت بوجه القادة وربحت المعارك، لن ننفكّ نتحدّث عنها طالما ثمّة أوطان وجيوش وقدّيسون.

اليومَ يكرّم اسم جان في كلّ مكان؛ وأفضل تكريم لها يجري في انكلترة. فبعد زمن من الارتباك دُهش الإنكليز من تردّدهم؛ فراحوا يغمرون بالأزهار أنصابها ويبدو أنهم أحبّوها. ونحن لسنا ممن ينسبون اليهم كلّ مسؤولية الدعوى عليها وموتها، لأنّ كثيرين من إنكليز تلك الحقبة، إنكليز فرنسة، ومنهم أسقف بوڤه، كانوا يحملون أسماء فرنسيّة صريحة.

ما كانت الوطنيّة، في ذلك الزمان، تشبه ما هي عليه اليوم.

انطلاقاً من جان دارك فقط، بدأت الوطنيّة تأخذ معناها الحقيقيّ. بمعنى التعلق الحارّ بأرض، ببلد يتجاوز حدود الإقطاعة والقرية.

«... وجان ابنة اللورين الصالحة
التي أحرقها إنكليز في روان».

من باريس وحّد فرانسوا ڤيلون بين اللورين ونورماندية ومقاطعة إيل دو فرانس، لأنه تعلّم هذا من إبنة اللورين.

أوليس البورغينيّون هم الذين سلّموها الى الإنكليز؟

الآن، في الأحد الثاني من أيّار، كلّ كنائس المسيحيّة تمتلىء كل سنة بالأزهار تكريماً لذكراها؛ وكلّ الحدائق تزهر أيضاً وابتداء من حدائق فرنسة.

ونحن أيضاً، هنا، ستكون لنا أزهار نُقدّمها تكريماً لذكرى جان دارك. ويعزّ علينا أن لا نفعل ذلك أولاً لأنه ينبغي أن نعزّز في كل مكان عبادة الأبطال والقديسين ثم لأن جان دارك، وقد دفعتها الأصوات التي سمعتها الى التضحية بحياتها في سبيل مملكة، اي في سبيل بعض مناظر الطبيعة والحياة وضروب الحبّ ولأنه يمكننا ان نتصورّها في الفردوس لاصقة بالقديس ميخائيل، المدجّج بالسلاح، وسط شعب بُهر بالقدّيسين.

في مسرحيّة «القدّيسة جان» لبرنار شو (التي مثّلتها على مسرح الفنون في باريس، سنة ١٩٢٥) قال الجلاّد لوارويك في نهايتها: «ان قلبها لم يشأ أن يحترق، يا سيدي... لكن كل الباقي هو في قاع النهر... ولن تسمع، بعد اليوم، من يتحدّث عنها».

أجاب واروِيك: «أن لا يسمع بعد من يتحدّث عنها! إني لأشك بذلك...».

وكان بإمكان ريشار دو بوشون، كونت واروِيك، ذي الشأن، أن يشكّ هو الآخر بذلك.

هجمة ربيع

١٦ أيّار ١٩٤٤

على خلفيّة السَرد القاتم، ازهرت الجاكارندا[١]، ومدّت أذرعها المجمّدة ملبّية نداء سريّاً. وعلى مهل توشّحت بلون الخبازى، كما فعلت أندروماك. ورسمت بأيديها الثقيلة إشارات ملكيّة، فكأننا أمام مشهد من المسرح الكلاسيكي يُعرض ولا ينقصه الاّ الأشخاص. ففي هذا «الديكور» تلقى حركات النفس، الأشدّ حرارةً، المنظر الذي يناسبها.

إن للأحزان كما للأفراح ربيعَها. فثمّة استرخاء معنويّ، كالبلسم، يخترق، هذا الصباح، الجراح المُستعصية. وللربيع في مناخاتنا، أواسط أيّار، دفق حياة يحمل الموت على الشكّ بقدرته فيحسب أنه مجرّد ظلّ عابر.

أيّار الورود والبساتين والحقول هذا الذي ينذرُه البعضُ إلى الصلاة والآخرون إلى الحلم، أيّار الأفراح، العميق، لا يجوز أن تُحزنه دموع إذ يساء إلى الحياة لو خالط أبهى لحظاتها بكاءٌ وحسرات.

بيد أن الحرب تجد في هذا البهاء أحد عناصرها. فهي، تمويهاً لعقمها، تشرك هجماتها بهجمات الطبيعة. وها قد حان موعد الهجوم والمذابح. وبلغ منتصف أيّار، في إيطالية، فجأة اقصى حدود الصخب والرعب. فما

١ . Jacaranda : شجرة تنمو في البلاد الحارّة، خشبها صلب.

هو الآن ربيع توسكانة؟ وأيّ فوضى حول رومة، وكم من صواعق على طريق أپيين؟(٢).

إن الإنسان يثور حين يؤاتيه الربيع، ويتّخذ قراره الرجوليّ بالإقدام على التضحية بربيعه وبحياته لأن الحربَ يجب أن تنتهي وأن تُنقذ حيوات وفصول ربيع أخَر.

أمّا ذكرياتنا نحن، ذكريات أيّار، فخطيرة وعذبة، يُغلّفها نوع من التأمّل. ولا نحفظ لها هذه النداوة إلاّ عن تجرّد لامتناه، ولأن الحرب عادت لا تؤثّر فيها لا إيجاباً ولا سلباً.

الربيعُ الحقيقيّ الذي يدومُ ويُبلسم، ويبقيه الزمن ولا تتهدّده الحرب، هذا الربيعُ إنما نحمله في نفوسنا. وهذا، وحدَه، يجعلنا ننسى أن ربيع اليوم يختلط بخريف حشد من الشباب.

٢. طريق شقّها الرومان في مصر عهد الامبراطورية.

الحرارة الشديدة

٢٣ أيار ١٩٤٤

عند اشتداد الحرّ تتراخى العزيمة وتتخبّط الإرادة. وقد أشار التاريخ كلّه إلى دونيّة البلدان الحارّة. فالغربيون الذين يتعودّون حياة الصحراء لا يستمرون بنشاطهم الاّ إلى حين، ، وإلاّ إذا كان لهم من الحيوية ذخر قد يفتقده الجيل الثاني بعدهم.

من الحرارات الجويّة ما يحول دون العمل (وبالأحرى المثابرة عليه)، ومنها ما يحمل على طلب الملذّات والحلم. فالشعر والصراع ليسا دائماً على قدم مساواة. وقد يتحمّل الحرارة الشديدة بسهولة أكثر من تعوّد مقاومة البرد القارص، إذ النقيضان يلتقيان. لقد استطاعت شخصيات استعماريّة شتّى وُلدت بين بريطانية واسكتلندة أن تألف العيش في البلدان الاستوائية، لأن من الناس من يستطيع أن يتحمّل الأحسن كما يتحمّل الأسوأ، وليس ذا شأن الآخرين.

لّما غزت رومة العالم كانت هي الشمال بالنسبة للكرة الأرضية المأهولة. لكنها كلّما اتجهت في غزوها نحو الشمال كان مصيرها المحتوم يتقرّر. فمنذ غزت رومة غالية وانكلترة ومنذ تخطّت حائط هدريان باءت بالفشل وما استطاعت أن تستمر سيدّة العالم. وقد رأينا ما رأينا بعد ذلك التاريخ. أما دفع الجنون بحكّام ايطالية المعاصرين إلى الاعتقاد بأن القوى الفاشية قد تتغلّب على قوّات الشمال!

هذا لا يعني ان الشجاعة والنجاح ينبغي أن يظلاّ غريبين عن بعض المناخات. إلاّ أن البلدان التي يشتد فيها ارتفاع نيران الحرارة لن تنتصر قط إلاّ في أوضاع غير متساوية.

علينا أن نَحذَر الحرّ. فلئن كان منبع الشمس مصدره كل حياة فان التعرّض الشديد لضربة شمس ينذر دائماً بالخطر. في أيّام القيظ القاسية نشعر أننا تغيّرنا، ولا يصفو ذهننا. وتتشوش أفكارنا وأعمالنا فتتباطأ. ولا يعود بإمكاننا، في مثل هذه الأوقات، أن نمضي إلى الحرب.

إن إنسان البُلدان الحارّة، إن عجز عن ردة فعل كافية، استسلم إلى الخمول وإلى النوم.

لكنّ للبنان جبالاً ويستطيع شعبه أن يلجأ إلى الأعالي فيلقى فوراً الهواء النقيّ والأنسام العذبة التي تحييه بكلّ ما للكلمة من معنى.

٤٠ درجة خطّ العرض الشمالي

٢٥ أيّار ١٩٤٤

فوق الدرجة الأربعين من خطّ العرض، لا تخضع أي أرض لاستعمار دولة كبرى غربية كانت أم شرقية، باستثناء الجزيرتين الصغيرتين الفرنسيتين سان بيير وميكيلون الواقعتين جنوبي ترنيف (ولا نسمّي منشورية مستعمرة ولا آلاسكه). مع أن الحرارة في اوروبة كلّها فوق الدرجة الأربعين من خطّ العرض. وهذا الخطّ الوهميّ على خوارطنا الجغرافية يجتاز إسبانية والبرتغال وإيطالية واليونان.

ويبدو لنا هذا الأمر مثيراً للاهتمام.

يعني خطّ العرض البعد عن خطّ الاستواء ويعني أيضاً علو القطب، أي المناخ ونوعية الفصول. فكلّ مستعمرات أوروبة هي أدنى من الدرجة الأربعين من خطّ العرض وحجم هذه المستعمرات يطابق ارتفاع الحرارة.

ويمكننا أن نجعل من هذا الواقع ناموساً، كما في الفيزياء والكيمياء.

تحت الدرجة الأربعين تنخفض صلابة النوع البشريّ فيفقد تدريجاً ميزاته ووسائله، من حيث النظام والانضباط.

وقد يكسب ذكاء ومرونة ما يخسره متانة وصرامة. لكن حتى هذا الأمر يظلّ نسبيّاً جداً.

إن الشمال يخضع للعقل أكثر مما تخضع له المناطق الوسطى على الأرض. وهو يفعل أكثر. هو يحتاج إلى كلام أقلّ وإلى حراريات أكثر.

هو يشتغل بدل أن يتكاسل ويحلم. وهو يغزو. والبلدان التي تعمل كانت دائماً تسود البلدان التي تحلم.

ذلك أن العقل النقّاد هو أهمّ عدوّ للسلطنات، ولا شيء يفكّك أوصال الأمم كالإفراط في تفسير النصوص الدينيّة. وعند اللاتين وعندنا في هذا الصدد الخبر اليقين.

أمّا نحن فموقعنا بين الدرجتين الثانية والثلاثين والرابعة والثلاثين من خطّ عرض الشمال. ولكن لنا الارتفاع بمواجهة خطّ العرض، فلا عذر لنا إذن إن لم نُفد من هذا الوضع. ان في العالم مواقع كمواقعنا، لاءمتها الطبيعة أو عاكستها، لكنّها وجدت في ذواتها ما صحّح الخلل الفطريّ.

فلكي لا نضعف علينا أن نصعد إلى أعلى الجبل.

ان ملاحظتنا حول عالم الاستعمار ليست إلاّ جغرافية وموضوعية بحتة. فكيف اجتناب ما يترتّب عليها من نتائج؟

صحيحٌ أن بُلدان الحلم أعطت مرآت البلدان التي تعمل مشتريعها وحكّامها. ولن نقول شيئاً عن الأديان. وبابينيان كان من صور وبونابرت من كورسيكا. وعلى حدّ علمنا ما كان ديزرايلي سكاندنياڤيّاً.

تحت الدرجة الأربعين من خطّ العرض نجد بسهولة قادةً أكثر مما نجد جيوشاً. ألا يَسعُنا أن نجعل أيضاً من هذا الواقع ناموساً بانتظار أن يهبّ تقدّم صناعة التبريد إلى نجدة البلدان الحارّة؟

سلم

٣٠ حزيران ١٩٤٤

«ما خرج قطّ من حرب منتصران وربّما خرج منها مهزومان»، هذا ما قاله هتلر سنة ١٩٣٩ في البرلمان الألمانيّ. وإنه لقول صحيح ولكن يجبُ، هذه المرّة، أن يتحقّق التأكيد الثاني. ويمكننا أن نضيف إلى هذا القول: ان كانت هزيمة المغلوب تقع في الحرب فهزيمة المنتصر عادةً هي في السلم. ذلك أن السلم السّيئ، السلم المُزعزع، قد يلغي مفعول عشرين نصراً.

منطقيّاً قد لا يكون السلم الذي يعقده منتصرون عدّة الاّ مساومة، بشكل ما على الأقلّ. فالمشاركة بإشعال الحرب تقتضي مشاركة بعقد السلم وليس قطّ بالتفرد. ولكن حتى هذا، اذا تغلّب العقل، لا يحول دونَ سلم صالح. فالأمم، أو الدول العظمى بالأصحّ، مدعوّةٌ، في يوم قريب لأن تبرهن عن حكمتها في هذا المجال.

بين جميع انواع السلم وأعظمها مجداً ومهابةً وديمومة (أليس للديمومة أيضاً نسبيتّها ودرجاتها؟) فهل من يقول لنا أيّها استمرّ زمناً أطول؟

لن نجول في بطون التاريخ لكي نجد جواباً، فربّ طالب بكالوريا، ونحن اليوم في زمن امتحانات، جاء جوابه أفضل من ذكرياتنا.

نقطة واحدة تهمّنا وهي أنّ ما من سلم، على المدى البعيد، قضى على الحاجة ولا دام أكثر من السنين أو الشهور التي اقتضتها طبيعة الأشياء. وطالما ان الشرائع تموت فأنّى لمعاهدات السلم أن تسلم من فقر دمها ومن

مرض الانحطاط؟

على هذا الصعيد قلّما استطاع جيل الإبقاء على ما فعله الجيل الذي سبقه.

إن السلم الحقيقيّ، بل الوحيد (أو الأقلّ هشاشة) هو ولا ريب ذاك الذي يُلقّن الناس العدالة المناسبة ويوفّق بين الانصاف والعدالة. ذلك لأن ضروب السلم العنيفة سبّبت من الدمار أكثر مما سببته الحروب وقتلت، بلا رحمة، أحفاد صانعيها.

فلنتجنّب ذلك هذه المرّة.

اقتحام الباستيل
و«الظالم الرحوم»

١٤ تموز ١٩٤٤

منذ اقتحام الباستيل ما عاد يجوز سَجْن الناس بلا مُحاكمة. ومع هذا كان يحصل ذلك بين حين وآخر.

إنّ مذكّرات السَجن بلا محاكمة، مراعاةً لمصلحة الدولة العليا، هي سلاح حاسم (وهل مصلحة الدولة العليا، خفيّة كانت أم مُعلنة، في الغالب، تعني غير فقدان صواب أحدهم).

في الواقع، هذه المذكّرات التي ملأت السجون (سجن الباستيل في باريس سنة ١٧٨٩ كاد يكون مقفراً) ليست إلاّ تعبيراً كتابياً تعسّفياً. ولعلّنا ننسى ذلك حين نتوق إلى حكم «الظالم الرحوم» كحلّ سياسيّ.

ضدّ هذه المهازئ قام مبتدعو تشريع ضمانة حرية الفرد، قبل قرن من ذلك التاريخ، بعمل عظيم. لقد أمنّوا احترام الشخصيّة البشريّة بدون أن يهدموا أي بناء. ولا يجوز القول أن الشعب حرّ إلاّ حين تضمن الحريّة الفرديّة. أمّا كل ما تبقّى فكلام بكلام.

هلاّ رأينا ظالماً ألطف من الملك لويس السادس عشر، هذا الملك المسكين، البريء، الناعم، الذي نتذكّر كلّنا اليوم مغامرته المؤسفة؟ حينذاك ما كان الملك ظالماً، بل الأعراف كانت ظالمةً. ولا بدّ ههنا، من إزالة الالتباس في معنى الألفاظ. فعندما يحدّثوننا عن «ظالم رحوم» يفكّرون

بظالم ذكيّ، بارع، شديد البأس، إنما شهم صادق، وبالتالي خلوق. وهي صفات ونعوت كثيرة على الظالم. فهل عرفنا كثيرين على هذا المثال؟ **ما من ظالم رحوم إلاّ ذلك الذي أصبح شهوده في الآخرة.**

نتطلّع إلى الظالم الرحوم حين يعجز العقل الجماعيّ عن حسن تدبير الأمور.

في الحقيقة، منذ القديس لويس حتى لويس السادس عشر، أقرّت، في هذه المرحلة، أو انتزُعت حريّات بالغة الأهمية، ويقتضي تذكّرها حتّى في يوم ١٤ تمّوز.

بالنسبة للعالم، يبقى للاحتفاء بذكرى اقتحام الباستيل معنى الرمز. إنه تكريم لأنبل أماني البشريّة. وهو يتسّم اليوم بمهابة أعظم عشر مرات من السابق، لأن فرنسة نفسها تحت وطأة النير.

ها يوم خامس للرابع عشر من تمّوز يمرّ منذ ضاعف ظلم الأجنبيّ عدد السجون في فرنسة. وسيكون الأخير في جوّ هذه المرارة وهذا الألم. عسى يقضي كرمُ النفس وسموّ الشعور على كلّ المظالم.

القدر يسير

٢١ تموز ١٩٤٤

أوضاع ألمانية تتأزّم يوماً بعد يوم. وأوروبة تتوقّع للحرب نهاية قريبة. فكم شهراً بعد يستطيع هتلر أن يقاوم!

قد يسأل مؤرّخو المستقبل عمّا كان يدور في ذهن هذا الرجل، في هذه الأيام العصيبة التي نحياها. أمّا نحن فنتصوّر الليالي التي يقضيها أكثر مما نتصوّر نُهُره. إن مثل هذا الرجل يستطيع أن يتقنّع بسهولة أمام مقربّيه وأمام الجمهور، لكنّه في لياليه، لا بدّ له أن يتذوّق طعم الجحيم. في أثناء معركة فرنسة تميّز نابوليون بعبقرية القائد العسكريّ وكان يمكنه هو نفسه أن يأمل بالنصر. أمّا هتلر فنخاله يبحث عبثاً عن الجنديّ العبقري الذي افتقده في ذاته.

في النورماندي وفي روسية بدأ انسحاق الجيش الألماني. وفي إيطالية سقطت ليڤورن، والجيوش المنتصرة تزحف باتجاه وادي پو وفرنسة. وانكفأ القادة الألمان، كلّ في موقعه الأخير. فهل سنشهد انهيار ألمانية خلال الخريف، في تشرين الثاني أو كانون الأوّل. هذا الأمر محتمل، وكذلك أمور أخرى.

في كلّ ما أبدعه واغنر[١] لا غسَقَ كهذا. لا شيءَ يُعادل أبعاد هذه

١. اشتهر هذا الموسيقيّ الألمانيّ برائعته «غسق الآلهة».

الهزيمة.

بعد هزيمة ستالنغراد لبست ألمانية الحداد بشموخ على ايقاع لحن جنائزي. فأي ألحان جنائزيّة ينبغي لها غداً؟ إن البشرية، منذ بداياتها وعبر صروف الدهر التي مرّت عليها، لم تأت بمثل هذا البرهان القاطع على هشاشتها. «عقاب الكبرياء»، قال بودلير. أجل هو عقاب الكبرياء واحتقار الضعف، لأن في بعض الضعف من عناصر المحبّة والحبّ أكثر مما في القوّة. إذ المدنية ليست ابنة العمالقة، ومينرڤا، ولو بخوذتها العسكريّة، هي امرأة رغم كل شيء.

فيما تدنو ألمانية من التصدّع، فإن طقطقتها المسموعة من بعيد أخفّ من طقّة البندقة بين قوائم السنجاب. ونحن ننتظر الحلول السياسية المقبلة لعلّها تجعلنا نتأمّل من جديد في بطلان المطامح البشريّة التي لا حدّ لها.

قيامة باريس

٢٢ آب ١٩٤٤

بعد أيّام، ثلاثة، أو أربعة لربّما، تُصبح باريس حرّة من جديد. فطوال أربعة أعوام عاشت باريس تحت نير الاحتلال! ومنذ القرون الوسطى ما دام قطّ، مثل هذه المرة، غزو لفرنسة أو احتلال لباريس. فكيف استطاعت باريس أن تحيا أربع سنوات بدون أهواء، بدون الحريّة. إنه أمر يصعب تصديقه. والسؤال يطرح بنوع من الدهشة. كيف هذه الباريس الذكيّة، الفكهة، المتمرّدة، الساخرة، الشادية، استطاعت أن تحيا أربع سنوات مع الألماني في كلّ مكان، من مونبارناس إلى مونمارتر، إلى شوم دو مارس، إلى فوبور سانت انطوان، كيف؟ كيف؟ كيف؟

هناك أمكنة لا نتخيّلها تحت وطأة الإكراه، لا نتصوّرها خاضعة للعنف. وباريس من هذه الأمكنة. هذه المدينة المُدهشة يسوسها البروسي بعد ألفي سنة في مسيرة التاريخ، بعد ألف سنة من حياة ملوكيّة، (مع وفرة الروائع والآثار التي جعلت من كل ضفّة من ضفافها، من كل حيّ من أحيائها ومن مراكزها وضواحيها مكاناً مقدّساً)، هذه المدينة يسوسها البروسيّ وكأنها حُوّلت إلى سجن فسيح، بل إلى أسوأ من ذلك، إلى قبر. حتى وسط منطقة «پير لاشيز»[1]، بين الضرائح، بين الأموات، لا بدّ أن

---

١. Père-Lachaise: مقبرة كبرى في باريس.

تكون الأناقة والروحانيّة قد ارتعدتا وتجلّلتا بالحداد، وانتحبتا تحت صفصافة موسّيه، من جرّاء هذه الفاجعة التي لا مثيل لها.

لكنّ باريس ستعود حرّة! ستخرج باريس من المحنة المُريعة. صحيحٌ أن الحرب ما انتهت إنّما أوشكت على النهاية، وستنتهي. بيد أن باريس ما رهبت قطّ العدوّ، بل الظلم، بل العبوديّة.

الآن بدأت نهاية الأيّام القاتمة، الأيّام بدون أفكار، بدون أزهار، بدون ابتسامة، زمن الهزيمة والاستسلام، زمن رياح الخريف تعصف على قصر لوكسمبورغ، على قصر فرساي، زمن الصمت والدموع تحت قباب كنيسة نوتردام وكنيسة القدّيس أوستاش، وفي المعبد السرّي في قاع كنيسة القدّيس روكز، في ظلال كنيسة سيّدة النصر.

حين يُمتلك كل هذا، حين يُمتلك عدد كبير من مثل هذه الملاجئ ومن الأمجاد، كيف يمكن الاستسلام للقدر بدون أن يُواجه بإرادة العظمة، بإرادة الحبّ!

إن تحرير باريس الوشيك كان له صداه في العالم كلّه. وله عندنا وقعه الخاصّ. ولا بدّ أن يُدوّي هذا الصدى أيضاً في أرجاء لندن، لندن المُدمّرة والمُنتصرة، لندن الصامدة بوجه رعب القنابل الطيّارة العمياء، لندن ضحيّة الأسلحة التي تُصيب، كيفما كان وبدون أن يُعرف لماذا، أسمى الأبنية وأجلّ العمارات الرائعة.

لقد اجهزت ألمانية معنويّاً ومادّياً على دعائم العالم. ولكن لكي تبني ماذا؟ لكي تقيم ماذا مكانها؟ باريس عادت إلى الحياة وقلب لندن يخفق على ايقاع النصر. أمّا برلين التي لم تكن أي شيء قبل ثلاثة قرون والتي اشتهت تدمير عواصم العالم فها هي اليوم تنزف، ولا تتواضع، بين تراكم الخرائب والأنقاض.

تقلّبات مفردات اللغة

٢٦ آب ١٩٤٤

إن معنى الكلمات يضيع.

كبعض الوجوه تحت الخضاب تتبدّل معاني الألفاظ. ويؤدي الغموض في الأفكار إلى عدم الدقّة في تعبير الكلمات. إن عصرنا عصر «على وجه التقريب»، فكلّ يكتفي بالتقريب والتضليل. والجماهير تثور أو تهدأ حسب صيغة مقاطع الكلمات التي تعرض (أو تُفرض) عليهما.

كلّ هذا يتّسم أحياناً بمظهر لعبة جماعيّة بريئة أو فاسدة. فلئن سبّب الإبهام غالباً شقاء البشر فقد وفّر التهدئة والنسيان أحياناً. إذ الوقت الذي نكسبه في التلطّي وراء الكلمات ليس دائماً وقتاً ضائعاً، والحقيقة تدافع عن نفسها كما تستطيع. المهمّ هو أن تبقى حيّة، مستقيمة، عزيزة، وان لا تشابه، في النهاية، التحديد المتقلب الذي قد أعطي لها.

في هذا السياق لا يجوز أن نعزو الأمر كلّه إلى السهولة، إلى الإهمال أو إلى القدر. فالذكاء أحياناً هو الذي ينسب عمداً إلى الكلمات معنىً ليس لها وقيمةً تتجاوزها. إن أموراً عظيمة تجسّدت وراء أغمض لطائف اللغة ودقائقها فيما كانت الصيغ الطنّانة تجدّ في تحديد وهميّ لما يأبى أن يكون له اسم. أما رأينا الامبراطوريّة في فرنسة تتماثل، عند بدايتها، بالجمهوريّة!

بقدر ما يصبحُ الإنسان مسؤولاً يزداد تعبيره بالألغاز، إذ السياسة والدبلوماسية ابنتا العراقة. ولأسلوب الكلام شأنه البارز بين الأسلحة التي

يعتمد بل هو (بعكس المظاهر) السلاح السرّي الأهمّ. وهو السلاح الأقوى أيضاً، ومن تفوّق في استعماله حُقّ له أن يفيدَ من قوّته.

ليس أشدّ غموضاً من عبارات شهيرة معدّة للظهور في مختارات علم الاجتماع والبلاغة. وعلى هذا أمثلة عدّة، ومن الأفضل أن لا تُقترح فيترك لكلّ ان يتزوّد بالمعلومات التي يرتئيها هو. وهذا أفيد له حتماً.

لنذكر في هذا الصدد خاطرةً لپاسكال هي: «العقل يعتقد طبيعيّاً والإرادة تحبّ طبيعيّاً بحيث إن تعذّرت الأهداف الصحيحة وُجبَ أن يتمسّكا بالأهداف الكاذبة». هكذا يتكوّن الرأي، هكذا تنتشر الدعايات. ان الشعب الذي يُحسن التصرّف حيال لعبة الألفاظ (أخت ألعاب الحظ) هو الأذكى والأقلّ انقياداً. هو ذلك الذي يفهم بسرعة أن السياسة والدبلوماسيّة ليستا فقط فنّ الكلام، بل أيضاً فنّ الكناية والتكتّم والصمت.

ولكي نخرج من نطاق التجريد ندعو القارئ أن يتذكّر أن من الطرافة مثلاً أن نحدّد **الاستقلال السياسيّ** استناداً إلى النظام (الإنسانيّ جداً) في دولة الكونغو المستقلة.

هكذا تكلّم لي-هنغ-تشانغ

١٤ أيلول ١٩٤٤

قال لي-هنغ-تشانغ العجوز، وكان رجل دولة عظيماً، حكيماً: «إن الحقائق التي هي أقلّ ما نُحبّ أن نسمع هي التي أكثر ما تهمّنا معرفتها».
كان لا بدّ من صينيّ، أصفر الرداء، لكي يُدلي بهذه الحكمة. فكم من حكومات سقطت لأنها صمّت آذانها دون سماع الحقيقة.

قد تستطيع سياسة محترمة أن تكون خرساء، ولكن لا صمّاء. لأن للناس دوماً ما يقولون لحكّامهم شرط أن لا يتجاوزوا طبعاً الحدّ المعقول. ففي كل بلد ثرثارون وبلهاء ولكن فيه أيضاً أناس لا يتكلّمون إلاّ ليقولوا شيئا ما. فهؤلاء ينبغي الإصغاء إليهم حين يجادلون أو يتذمّرون.

لأن لهم أسبابهم، وأسبابهم الوجيهة، في مثل هذه الحال.

في الماضي القريب، أي منذ سنوات، شهدنا جميعنا، بقربنا، نوعاً من وباء الصمم، الصمم النسبيّ طبعاً، لأن الإطراء المضلّل وحده كان ينفذ إلى المسامع. فقد انعدم وجود الآذان الحرّة في الأوساط السياسيّة العليا، حسبما اتّفق على تسميتها، فالنهج الرسميّ (بقدر ما كان هناك منهج رسميّ) كان قائماً على الأوهام حتى جاء يوم تبيّن فيه انه لم يبقَ من جوهر هذا النهج شيء. وفي الوقت عينه انهارت سياسة «الطرشان».

ينبغي تقبّل الدروس الصادرة عن حُسن نيّة. وينبغي تعلّم الإصغاء إلى الأشياء المُزعجة حين تُنيرها الحقيقة. فليس أسوأ من كبرياء تغنّيها الغباوة.

إن حكمة هذا الصيني تُفيد كلّ إنسان في العالم، تُفيد الكبار أكثر مما تُفيد الصغار. لي-هنغ-تشانغ الذي كان حينذاك يُحارب اليابان ويدافع بروّية عن أمجاد الصين السلطانيّة، في طور الانحطاط، قال ايضا: «إن شعباً عريقاً بالمدنيّة يحتاج إلى تعلّم ما سهل أقلّ مما يحتاج إلى تذكّر ما نسي».

هذه الملاحظة الحادّة تلتحم بالأولى، وليس لها إلاّ معنىً واحداً هو: يجب الرجوع إلى مدرسة التجربة حين نكون قد ابتعدنا عنها، أي إلى مدرسة الحكمة.

بعض إرشاد للقارئ

١٨ أيلول ١٩٤٤

من كل ما يُكتب ما أقلّ ما يطابق منه الحقيقة وجوهر الأمور. من كل ما يطبع كم «حقائق» تصمد! فلئن كانت أصغر مكتبة تدعو إلى ممارسة القتل، فما ظننّا اليوم «بالإعلام اليوميّ»، بالحقيقة اليوميّة؟

لا بأس لو اقتصر هذا الأمر على الخطأ غير المقصود، ولكن هناك الخطأ الآخر، الخطأ المبيّت، الطوعيّ، الخطأ المتعمّد، المدروس، المُقنع، المفروض، الخطأ الواعي الذي يُبدل الحقيقة بقناع الوهم، بما يخدع ويبلبل ويغوي.

يجب الحذر من الكتابات النثرية في هذا الزمن (وحتى الشعر كاد يتواطأ مع النثر). يجب الحذر من هذا النثر الذي هو سلاح حربي وأدب مأجور والاحتراس من ختَل السياسيّين والمذاهب ودعاواتها.

ثمّة نثر شرير كما ثمّة نيّات سيّئة وسموم هنديّة. وثمّة فخاخ يؤمل بها اصطياد القارئ الساذج كما العصفور بالدبق. فلنحذر ما نقرأه كل صباح حين نجهل مصدره. وليكن حذرنا بنسبة ما نُحرم البساطة والمنطق والوضوح.

لن نحمّل هذا القدر من السوء معاصرينا فلا نحسب حسابا لحسن النيّة وللجهل، ولكن بما أن من يقرأ لا يستطيع أن يعرف كلّ شيء فإن عليه أن يتنبّه، أن يدقّق، وأن يتحفّظ بالمشاركة بشعوره وبعقله.

لأننا لا نستطيع أن نعرف كل شيء لا يجوز لنا أن نقبل كل شيء. ولا بدّ في هذا المجال من الاسترشاد بديكارت، إذ الحقيقة بذاتها تتعرّض لتشويه مذهل عبر التأويل والترجمة. فكم تنسب إلينا أقوال لم ننطق بها؟ كم وضع تحت اسمنا ما ينافي تفكيرنا؟

ولا نتوخّى من هذا الكلام الاّ أمراً واحداً وهو أن نوقظ الذكاء والمنطق في كل فرد، فنتشبّه بالأعمدة واللافتات على طريقنا التي تحمل إشارة «ممر مقطوع»، «خطر موت»، أو بكل بساطة «احذروا الدهان» لكي نستدلّ على فخاخ ظاهرها بريء أحياناً ولكنّها رهيبة كحقول الألغام التي يتيه الناس بها ولا يكتشفونها فتفجّر بالنهاية كل شيء.

بديهيّات

٢٦ أيلول ١٩٤٤

إن اتّفاقاً يجمع بين بريطانية العظمى وفرنسة وبلجيكة وهولندة يمثّل على القارّة الأوروبيّة مئة مليون نسمة. وخارج أوروبة يمثّل أكثر من ٥٠٠ مليون. واذا انضمّت إلى هذه الكتلة، فيما بعد، إيطالية وأسبانية والبرتغال ازداد هذا العدد ٧٥ مليوناً.

كيف تستطيع أوروبة الغربيّة الدفاع عن مواقعها ومستقبلها إذا لم تُجمّع بعض قواها. ويظهر أن أفكاراً من هذا النوع بدأت تختمر في الغرب.

في الحقيقة، إن هذه الأفكار تختمر في كلّ مكان. فبعض الوحدات القوميّة اليوم أصبحت على قدر من الوهن والهشاشة بحيث لا يُمكنها ان تستمرّ بوسائلها وحدها. انها معرّضة لتهديد مستمرّ من الدول التي هي أقوى منها. وهي تنتظر طبعاً من الناموس الخلقيّ عوناً، شرعياً ولا شك، لكن غرائز الإنسان المنحرفة قد ترفض لها هذا العون.

لقد أكّدت ألمانية دائماً وما زالت تؤكّد حتى في غمرة الكارثة، انها كأمة هي فوق الحقّ. فالمعاهدات، في نظرها، لا تشكّل قيداً ولا الأخلاقيات رادعاً. إذن، وذكرى الأسبوع الأخير من آب ١٩٣٩ ما تزال ماثلة أمام أنظارنا، لا بدّ أن نتساءل: ما النفع من التواقيع وما النفع من المعاهدات؟

ليست حرب الأسلحة هي الأشد مداجاة، بل حرب المخابرات والمراسلات السرّية. فتحذير الخصم تسهيلاً للقضاء عليه أسلوب خبره

العالم مرّات في القرن العشرين الشهير، قرن الحقّ المكتوب والكلام المُسجل. وهذا ما يقلق الضمائر.

يشرّف الدُول الكبرى المنتصرة غداً أن تكون قد ضمنت مُسبقاً للضعفاء انهم سيُحترمون، وسيحرّرون بالعدل. فهذه الضمانة تخفّف من وطأة خيبات وأحداث مؤسفة ليست ديمقراطيّة عانوا منها الأمرّين. ولكن قد يقول الشكّاكون إن التاريخ حافل بظاهرات نقض الحقّ والشرف. وهل التاريخ، في الواقع، الاّ جدول طويل ينطوي على مواقف ضعف بشريّ؟ خطوة واحدة فصلت بين برقية إمُس[1]، وأيامنا هذه عبر ثلاث حروب؟

ان الضمانات ممتازة ولا شك، وهي جديرة بالمدنيّات التي تعرضها وتمنحها، ولكن أليس من الأفضل أن يقوم تقارب وتفاهم وتحابّ بدلاً عنها وأن يسود الاعتقاد بأن مئة مليون نسمة يدافعون عن تراث رائع أحسن مما يدافع عنه أربعون مليوناً. **ومهما يكن من أمر فهذه المدنيّات لا تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافاً قد يؤدي بها دورياً، باسم القومية الجامحة، إلى الخراب والموت؟**

الأرض تشعر بحاجة إلى تخفيض عدد مجموعاتها السياسيّة، وهي ظاهرة تتكرّر منذ قرون فأين هي اليوم هلاّده، بل أين هي أوروبة الاقطاعيّة وجمهوريّات عصر النهضة وإمارات المانية المتألقة (وقد وددنا لو أنها عادت الى الوجود)؟

انقضى عهد التحليل والتجزئة بدون تحديد، فالمستقبل للتركيب الجامع، للأفكار العامّة، للمصالح الجماعيّة، للنظرات الإجمالية. ولعلّ مبدأ تقسيم الصعوبة الديكارتيّ قد ولّى. وسيأتي دائماً وقت يفرض مواجهة ما لا يقبل التجزئة. وأوروبة، مع آسية سائرة في هذا الاتّجاه.

أن نرى غداً بريطانية العظمى وفرنسة وبلجيكة وهولندة وبلداناً أخرى قد تقاربت تقارباً وثيقاً فلن يكون هذا مجرّد حلم.

١. Dépêche d'Ems: هي البرقيّة التي بترها بسمرك فأشعلت الحرب بين ألمانيا وفرنسة (١٨٧٠).

بورجوازيّو كاليه

٣ تشرين الأوّل ١٩٤٤

حين كان فيليب دو ڤالوا على عرش فرنسة، منذ حوالي ستماية سنة، حاصر مدينة كاليه ملك انكلترة، إدوارد الثالث، الملك اللامع الذي انشأ بعد ستّة وسام الفروسيّة المعروف بربطة الساق إكراماً لعينين جميلتين. لكن ستّة «بورجوازيين» أنقذوا المدينة باندفاعهم الوطنيّ الفريد. ومن وحي هذه المغامرة نحت رودان رائعته المعروفة تكريماً للبورجوازي وإعادة للاعتبار اليه.

على مدى زمن طويل، تحت قصف المدافع في هذه الحرب، أيقظ سكّان كاليه هذه الذكرى العظيمة. وهذه المرة حُرِّرت المدينة من سيطرة الالمان. وشاء المدّ والجزر في مسيرة الزمن أن يكون الانكليزيّ هو من أرجع كاليه إلى فرنسة.

فهل نواصل، بعد هذا، كتابة التاريخ لجيل واحد أو لجيلين فقط؟ أم نحاول طوعاً ان نسترشد بالتطور الحتميّ لدى الناس وفي شؤون الحياة؟

ثمّة أمر واضح تماماً (ليس منذ اليوم، بل منذ زمن بعيد ومنذ كل حين) هو أن البلدان عينها في ظروف مختلفة، لا تتصرّف بالطريقة عينها وان العداوات الدامية يتوارى أثرها بين صباح وصباح، بين حرب وحرب، تماماً كالدخان.

وسط الشطط البشريّ وحده التفكير السليم دائم. والسياسة هي أكثر ما يتغيّر.

الى مَ أدّت السياسات القديمة العهد في بلدان عدة؟ سياسة ريشيليو وسياسة كرومويل مثلاً؟ فرغم عظمتها وعظمة سواها ما شأنهما بالنسبة إلى أوروبة المعاصرة!

إن أمثولة كاليه تصلحُ لكلّ مكان وزمان. فآلاف البشر الذين ماتوا منذ حرب المئة سنة لاحتلال كاليه أو لاستردادها لو أمكننا سماع أصواتهم لعرفنا أنها أعلنت بطلان نزاعاتنا وتأكّدنا مع أوستاش دو سان پيير(١) والآخرين أنه ليس من العدل أن نموت أو نتعرّض للموت الاّ في سبيل بشر آخرين ولتخفيف آلامهم واعادة العدالة إلى نصابها وليس من أجل مطامع حكَمَ التاريخ ويحكم على عُقمها وبطلانها.

١. Eustache de Saint-Pierre : أحد البورجوازيين الستّة منقذي كاليه.

تعليقات شعريّة حول روسية

٥ تشرين الأوّل ١٩٤٤

روسية أوروبة، روسية آسية كم روسية تجمعان؟ وماذا تفصل وتقسم، بعد اليوم، جبال الأورال. إن الصناعة الجبّارة التي نشأت هناك توافرت لآليّاتها كلّ معادن العالم. فالى البلاتين والذهب والمانغانيز والنيكل والنحاس والحديد تضاف أبهى الجواهر الثمينة لتذكّر بالأمجاد الغابرة.

من نشوة ألحان رمسكي كورساكوف وبورودين لا تخرج أوروبة من حدائق شهرزاد الآ سعياً وراء إحساس لا يُحدّ في «سهوب آسية الوسطى»[1].

في الحقيقة لم يعد هناك الآ روسية واحدة من خلال التنوّع الفريد في الملابس والوجوه. بين آسية وأوروبة ليس ثمة التحام فقط، بل انصهار معدن متوهّج. والحمّى عينها تحرّك في آن معاً أفكاراً تبلورت وفي انسياب.

مع هذا تتضاءل كل عظمة الاتّحاد السوفياتيّ المادّية، وكلّ احتياطيّة أمام طاقته على التأمّل والحلم.

إن روسية الصاعدة التي نظر اليها توكفيل، منذ أكثر من قرن، قد كوّنت شكلها هي اليوم صورة أرضيّة، معادل برّي للأوقيانوس. ففي النطاق

---

١. «شهرزاد» رائعة كورساكوف و«سهوب آسية الوسطى» رائعة بورودين الموسيقيتين.

الضيّق المخصّص للجنس البشريّ بين كثرة القوالب، ما أعطى بعد حشد بشريّ مثل هذا الانطباع بالاتّساع والقوّة.

لقد مكّنت الطيّارة والسرعة من قياس أبعاد روسية. وستمكّنان أكثر فأكثر من سبر أعماقها. وتساورنا الدهشة حيال صيرورة هذه الكتلة الضخمة البكر وإمكاناتها الجبّارة. وبالرغم منّا نلتفت الى الوراء لنقوم بمقارنة، تفرض نفسها مع الأجناس القديمة، مع الحضارات الماضية...

لسنا بعيدين عن هذا القفقاس وعن هذه الجيورجية، وهما وجه روسية الجنوبيّ. وحول هذا المفترق يدور جدال بين أوروبة وآسية فتطرحان ألف سؤال ولا تلقيان جواباً. وتتطلّع الواحدة إلى الأخرى كما تتطلّع اميرة سكندينافية إلى أميرة من نسل الترتار.

أمّا نحن، في عمق بحرنا المتوسّط، فنشابه خموراً معتّقة قرب هذه الخمور المحلّية الفتيّة الفوّارة. فمن حيث الكمّية نحن قلّة لا تُذكر. أمّا الجدّة فننظر اليها بتحفظ طبيعيّ لأننا عرفنا منذ زمن بعيد أن لا جديد تحت الشمس.

إننا لنتطلّع إلى روسية باحترام. فلا بأس لو كنّا، بجوارها، لا نمثّل الا القليل القليل، لأنه يمكننا أن نجوب بالعقل مساحاتها الضخمة ونشبع فضولنا في خوض رحاب عقيدتها وتجاربها.

روسية الحرب، بأبعادها المذهلة هي غير روسية السلم. والمستقبل كفيل بأن يكشف وجوهاً جديدة من هذا العالم الجديد.

ملاحظات حول الزمن

٣١ تشرين الأوّل ١٩٤٤

هل سيُفاجأ القارئ لو دعوناه إلى التأمّل في مضيّ الزمن؟ مضيّ نسبيّ ولا شكّ. إذ ما هو الزمن في المطلق؟ ما هي هذه القسمة الكيفية للأبديّة الهادئة!

لا قيمة للزمن الاّ بالنسبة لما يمرّ. حين ننظر إلى الساعة ندرك تآكلنا، وما نسجّله انما هو سيرنا السريع أو البطيء نحو حتفنا.

لو اعتمدنا الحكمة لمكثنا على هامش الزمن، رغم الحقائق والظواهر، رغم تناوب الليالي والقهر والمناخات والفصول، لكنّا أدرنا الظهر له بكل احترام وعشنا من دونه، لأنه لا يعبأ بنا.

غليان، حركة، حمّى، تفكير بأحداث لامتناهية وأشواق وآمال وتوقعات: كم هي زائلة كلّ هذه الأمور حين نضعها في إطار الزمن. عن وعي أو غير وعي ولأسباب تافهة نشنّ كل يوم عشر معارك. نركض كالنملة التي لا تتعب، كالكائن الذي حُرّمت عليه الراحة جسدياً.

نركض كالمجانين نحو هاوية ونحن نعتقد **بالوقت عينه** أننا نهرب منها، لأننا نعجز عن انتزاع الزمن من القاموس كما الزؤان من الحنطة.

ولكن كيف نتجاهل الزمن؟ وقسمة الزمن هي أساس النظام. فلولا الشمس ولولا إبرة الساعة لكان كل شيء تقريبياً، ولافتقدنا ضبط المواعيد وودّعنا كل دقّة.

أجل، نرتبط، ولا شكّ، بهذا العارض كما بطوارئ كثيرة غيره، لأن ليس فينا ما يكفي من اعتدال.

أمّا الجنس الحيواني فهو يعيش بدون ساعة. الطبيعة توقّت له. هو يسيطر على الزمن كما تسيطر عليه الجبال.

وهذا صحيح أيضاً. انما يبقى القلق الإنسانيّ والادراك وذلك الهمّ السامي الذي نحمله في ذواتنا. فلئن خلقنا الزمن، وقسّمناه ووضعنا له نواميس على صورة النواميس الكلّية، ولو خضعنا لهذه النواميس، ولو قدّمنا الساعة أو أخّرناها، ففي سبيل انسجام يتفلّت، بهدفه، من الزمن. فمن دون كل هذا قد تختلّ حياتنا ولا تعود جديرة بالواقع الذي نحن فيه.

لا بدّ من كلمة بعد. على كل منا أن يلاحظ كم الغرب أدقّ من الشرق. فخطّ الزوال الجغرافي في غرينويتش يضبط كل الساعات وفوق ٤٠ درجة من خطّ العرض نعلّق أهمّية قصوى على كلّ دقيقة. أمّا الشرق فليس ذا شأنه. وأنه لعلى خطأ.

لقد وُضعت فكرة الزمن لتنظيم المجتمعات البشريّة، وفكرة الأبدية لتنظيم كل حياة. ولكلّ من هاتين الفكرتين ضرورتها. وعلينا أن ننصاع لهذه الأنظمة، بدون ان نخلط بينها.

تنويعات حول ألوان الخريطة

٢ تشرين الثاني ١٩٤٤

على الخرائط الجغرافية الملوّنة، المألوفة، سيتبدّل، بعد الحرب، توزيع الألوان، تبدّلاً محسوساً. سنرى فيها عند أوّل نظرة، في لطائف التلوين، بُقعاً أكبر مما كانت عليه بالأمس القريب. وذلك لأن مفهوم العائلة سيتّسع بين الدُول.

ان كل تشكيلة الألوان الحمراء ستحدّد، كمن قبل، نطاق «امبراطورية» معيّنة، وتشكيلة الألوان الخضراء أو الصفراء أمبراطورية أخرى. لكن تطوّرات مفاجئة ستطرأ على الصورة التقليدية للقرابة السياسية.

لقد لاحظنا أكثر من مرة أن الكرة الأرضيّة، بعد قرون من التحليل، تسير على دروب التركيب. فقد خلت من مناطق مجهولة، ولم يعُد للسرّ مكان. والقليل الباقي خارج الجردة يسهل كشفه. فانطلاقاً من المعرفة والاختبار تعيد الانسانيّة جمع ما فرّقته على مدى القرون. إنها مرحلة طبيعيّة من مراحل المسيرة الطبيعية التي تحوّل «العشائر الى سلطنات».

طحن الزمن، كما تُطحن الحبوب، إقطاعات، مُدناً، دوبلات، قصوراً وأسيادها، إمارات كبيرة وصغيرة، دولاً مفتّتة وأحيانا تافهة في الماضي البعيد.

فأي منافسة عادت تفرّق اليوم بين آلب وروما أو بين سبارطة وآثينا؟ فالوطنية التي مات في سبيلها كم وكم من البريتانيين والبورغونيين في

محاربة رجال ملك فرنسة، ما اصبحت عليه منذ عهد دوغكلان وعهد لو تيميرير؟[١]

إن الدويلات القليلة الباقية التي قامت على التقليد والحقّ فقط، لا تُخدم الأعدالة ومجاملةً: دويلات اندورا، سان ماران، موناكو، ليشتانشتين: كلّها ذكريات حيّة لقرون متوسطة جميلة، لنهضة رائعة. ونتمنّى لها ولمثيلاتها ان تستمرّ طويلاً بمنأى عن الوحش. لأنها في الواقع أسطع رمز للحرية، للنزوات البشرية، ولأنها من أندر الوجوه الشعريّة للحضارة.

التركيب ليس التماثل بل عكسه، لأن التماثل يفترض زوال كل ما هو خاصّ، فيما التركيب ينطلق من الأجزاء إلى الكلّ، وهو لا يزيل شيئاً بل **يؤلف أفقاً**.

أن نزعة السياسيّين اليوم هي مزدوجة. فهم من جهة، ينظرون (كما ينظر السيد فورد إلى سياراته لتوفير اسباب الراحة فيها) إلى المجموعة الكبيرة، المجموعة البشرية، كهدف لهم. ومن جهة أخرى يثورون على هذه النظرة حين يتبيّنون ان التنوّع هو مصدر كل خلق وكل جمال. فهل، سيجعلون، بحجة المساواة، من كلّ شيء مجموعة؟ يا للبشاعة!

هل سيتغذّى الناس ويلبسون ويسكنون ويتعلّمون بذات الطريقة وعلى ذات المنوال؟ وأي حرّيات يُبقون اذاً لأذواقهم وأفكارهم؟

كل هذا سيتوقف على الألوان التي سنراها على خرائطنا وعلى السياسات والأفكار التي سيعتنقها أمثالنا من البشر.

المهمّ في النهاية هو ان لا يُخلط بين الأحمر والأخضر أو الأصفر أو بين الأنظمة المفروضة والأنظمة المقبولة.

١ . Du Guesclin مثال الفارس في حربه ضد الانكليز (١٣٢٠-١٣٨٠).
Charles le Téméraire: آخر أمراء مقاطعة بورغونيا الفرنسية (١٤٢٣-١٤٧٧).

«تلامذة قدامى»

١٢ كانون الأوّل ١٩٤٤

لأي مدرسة، ولأي مؤسسة انتسب هؤلاء القدامى، لا بدّ من نشيد يُكتب إكراماً لهم. إنهم أبناءُ الماضي يعودون، يلتقون، ويأتون إلى البيوت القديمة ومعهم ما يُشبه موكب أشباح.

منذ أيام غبتُ عن اجتماع «قدامى» خُصّص للصلاة عن أرواح الموتى، عن أرواح القدامى الذين تواروا، ولا يسعنا دائماً أن نفعل ما نشاء. لكن مُجايليّ، أولئك الذين جاوزوا الخمسين سنة وقد تعلّموا الآن الحكمة أو بعضها، يعرفون أن تلميذاً قديماً يظلّ تلميذاً، لأن التلمذة لا ينتهي عهدها، ولأن التعليم واجب دائم في مدرسة الحياة.

مع هذا ثمّة نوع من المأساة في مجابهة ماضينا، طفولتنا، صبانا، لا في الوحدة، ولا في تأمّل ما كنا عليه، بل في الحركة، في الصخب، وسط أولئك الذين كبروا معنا، وشاخوا الآن أو يشيخون وبين الجدران عينها حيث كانوا في الماضي يكبرون كما يكبر الرجاء.

في اجتماعات القدامى هذه يطيب لكلّ واحد، لو سعى قليلاً، أن يجد خيطاً هادياً يمتدّ من طرف إلى طرف في المتاهة، في المدى الهائل، خيطاً من الأفكار والحركات والأحداث التي حولّت الشكل الطفوليّ والملوكيّ الذي كنا عليه إلى الشكل الرجوليّ الخائر الذي صرنا عليه.

لا بدّ أيضاً أن نسأل بقلق ما الجامع المُشترك بين رجل اليوم وطفل

الأمس، بين القلب المُنهك والقلب النقيّ، بين الوجه المشرق والوجه الآخر السائم الذي نطوف به وقد ألبسته الحياة أقنعة عدّة.

لقد توارى كثيرون ممّن كانوا أصدقاءنا ومعهم توارت ألف صورة ومات ألف حنان. لكنّ وجههم ما زال يرتسم، حسب الفصول، عبر تسلسل الصلوات والقهقهات في المآدب والخطب الحافلة بالعبارات المنمّقة. طلاّب قدامى، هم أيضاً قدامى ويستمرّون كما نحن، ضيوف المغامرة المشتركة وشهودها. إنهم في مكانهم في موكب الظلال.

ولكنّ فتوّة رائعة تعاودنا مع هذا، تستولي علينا، تُقنعنا بأن اجتماعات القدامى هذه لا تنحصر بالماضي. إن فيها ولا شكّ اولاد الأمس ومراهقيه، إنّما فيها أيضاً رجال الغد...

معهد قديم، اجتماع تلامذة قدامى، يا لها من صورة للحياة في مسيرتها. هي دفعة الأجيال، هي الجوهر الباقي، عبر أفكار تمرّ، وهي الرابط الذي يقسّي هروب الأيام ويحبوها رمز الانبعاث الدائم.

«طفل ولد لنا»

ميلاد ١٩٤٤

حيال مصير البشر تتجدّد الدهشة كلّ يوم، وهي تتجاوز كل حدّ يوم عيد ميلاد يسوع. فما لا يُدرك يظهر مُحتّماً، لأن العدالة العظمى استدعت فادياً. وقال القديس يوحنا: «ان الكلمة تجسّدت وسكنت بيننا».

ما يكون من شأن حياتنا لولا هذه الأشياء، لولا شعلة الألوهة اللاهبة! أن لدى أسعد الناس، على هذه الأرض، تراكم أحزان، وقلق يبدأ مع العقل، وخوف يكبر مع الغنى، وجهد ينمو مع القدرة، وألم يتضاعف مع الحبّ. ما يكون من شأن ذلك العبور، عبورنا نحن، اذا كان لا يؤدي الآ إلى الأرض؟ وهذه الأعجوبة، التي هي الإنسان، ما قد يكون من شأنها لو أن الإنسان كلّه لا يمثّل شيئاً؟ ولكن بعد انتظار طوال قرون كان **ميلاد** يسوع الباهر فتمّت النبوءات، وكانت وساطة الإله الأزليّ المباشرة.

يا له من موضوع دائم للإعجاب والبهجة! فكلّ سنة، منذ ذلك الحين، نعود إلى هذ المشهد الرائع: سماء ليليّة مكوكبة، جبال، رعاة، ملائكة حينذاك على مفترق طرق العالم. ولد **الطفل** الأوحد فامتلأت اليهوديّة، وامتلأ الجليل بالعجائب.

هو **الطفل** الذي حيّته اليصابات قائلة لمريم: «بوركت ثمرة أحشائك» وهو الإنسان الذي سيقول عنه المعمدان: «ينبغي أن يكبر هو وأن أصغر أنا، فإني لا أستحق أن أحلّ ربطة حذائه».

لكنّ الأرض، مع هذا، ما زالت في حرب ونزاع. والشعوب تموت، منذ ميلاد يسوع، لأجل مشاريع باطلة تتجدد مئة مرة. ها هو الوهم، مع الأسف، ما زال يستر الحقيقة بظلّه.

غير أن المغامرة البشرية كلّها لا تعني شيئاً الا بقدر انسجامها مع ولادة هذا الطفل.

الحرب، آخر هذه السنة

٢٧ كانون الأوّل ١٩٤٤

يُقال إن نهايتها قد تكون هذه السنة. لكن السنة تنتهي والتاريخ يستمرّ، تاريخ هذه الحرب الرهيب.

إن ما نراه الآن يحمل على الظنّ انها الانتفاضات قبل الاخيرة، انتفاضات عنيفة، هائلة يتخبّط بها بلد عظيم يراهن على موته وحياته.

إنها، على صعيد آخر، معادلة لموقعة فرنسة سنة ١٨١٤. لكنّ آنذاك كانت انتصارات الأمبراطور تتلاحق، انتصارات عبقريّة مستعارة، عبقرية هائجة بانتظار النهاية المحتومة. وفي آخر المطاف قصر فونتنبلو، وداع، ثم اعتزال عرش ومنفى...

أمّا ألمانية الآن فليست انتصاراتها هي التي تتعاقب. إنها تقوم بمحاولات لا تتجزأ لفكّ الطوق عن عنقها، محاولة يائسة لأنه تأكدأن الجهد صار باطلاً والنتائج ضئيلة جداً اذا قورنت بما توقّعته ألمانية. لكن العراك بلغ من الهول أشدّه. فلو أن معنى المقاييس لم يضيّع في غمرة الهجمات والمعارك المتتابعة لوجب اعتبار هذا الصراع الذي يشهده الغرب الآن أقصى ما رأته الأرض في تاريخها من عُنف وجنون.

إن أدوات الحرب وآلياتها هي هنا في أحدث اشكالها وأشدّها تطوّراً علمياً وأرهبها، ووراءها، وفي وسطها، ملايين البشر يتلاحمون في معارك جهنميّة. ففي القرى البائسة المُدمّرة يتكدّس الموتى بالآلاف، ومن

السماء تهطل أمطار القنابل فتسحق جبهة خيّم عليها، مع الثلج، شبح الأسى والخراب.

يجدر بنا أن نذكّر بهذا بعد أن عيّدنا بالأمس ميلاد يسوع والاّ فقد تقضي ملكة النسيان فينا على الواقع.

في الماضي القريب كان طارئ ما، انفجار في منجم أو إعصار يسبّب بعض الضحايا، يهزّ العالم بأسره. أمّا اليوم فالحدث الخطير قد تجاوز كلّ حدّ. وما فعله الإنسان فاق ما فعلته الطبيعة في أسوأ كوارثها. ولا يكاد يبقى مجال إلاّ لطوفان جديد.

ستنتهي هذه الحرب، كما انتهى غيرها، فالانهيار بلغ مداه. والشمس ستشرق من جديد ذات يوم صيفيّ على عالم محطّم غارق في أحزانه لكن الحرب تكون قد توقّفت فيه. حينذاك يبدأ إحصاء الدمار والآلام. ولكن حينذاك أيضاً سترتفع، من قاع الهاوية، صرخة رجاء، لأن الربيع يعقب الشتاء كل سنة وكل شيء يتجدّد.

إن أبناء «نسل الأسياد» اولئك الألمان المتكبّرين الطامعين باخضاع الغير هل سيقولون آنذاك انهم صرفوا الحياة عن هدفها، وانهم، بعون العلم، جعلوا من مادة شعريّة، من مغامرة قد تتحوّل حتى آلامها قصيدة، مأساة فظيعة حافلة بالحوادث الوحشية؟

استقلال وترابط متبادل

٢٩ كانون الأوّل ١٩٤٤

أن تكون مستقلاً، في المطلق، يعني أن لا تكون تابعاً لأحد. وكثير على إنسان أن يعتقد بأنه سيّد تامّ على كل شيء.

إن الاستقلال الحقيقيّ العادل، الاستقلال الذي ينبغي على كلّ انسان، كريم الأصل، ان يتمسّك به، هو ذاك الذي يُتيح، في نطاق احترام القاموس الطبيعيّ، ان نسنّ بأنفسنا شرائعنا ويجعلنا أسياد الأماكن التي نعيش فيها.

لكن، ونحن، على عتبة سنة ١٩٤٥، حيال سلسلة الأعمال الحربيّة والسلميّة الطويلة التي ما اكتملت حلقاتها بعدُ (والتي تؤدي بتاريخ مجهول الى سلم مجهول)، من الجائز، والمنطقي والمستحبّ أن نتساءل: أين هم الناس - الناس عموماً - من الاستقلال والسلم؟

ذلك لأنها قضية البشر، قضية انسانية منوّعة، متغيّرة، ثابتة، متحرّكة، بطيئة، هائجة، مزهوّة، مستسلمة (وما شئنا من نعوت كثيرة مناسبة أو غير مناسبة) نفخر ونغتبط باطلاقها علينا.

ما حال البشر؟ لأيّ حدّ يستطيع بعضهم أن يستغني عن البعض الآخر؟ الى أي حدّ. مثلاً، يستطيع العالم الجديد ان يتجاهل القديم والقديم الجديد؟ وبأي مقدار تستطيع البلدان التي تملك الذهب، أو المطاط أو الآلات أو الماشية، أو الأجسام الدهنية، أو القطن، أو البنّ، أو أشياء

أخرى، أن تمنع كل هذه عن البلدان التي تفتقر اليها؟

وأولئك الذين لهم وسائل النقل؟ وأولئك الذين لهم الفضاء؟

والاكتشافات الجديدة التي غيّرت وتغيّر أكثر فأكثر وجه الأرض لمن أعدّت؟ الى اي نسل اقطاعي، الى أي دول كبرى في هذا العالم؟

إن الاستقلال الصارم المتصلّب يقضي بأن يكون كلّ انسان سيّد ممتلكاته واختراعاته، سيّد الزمان والمكان والحرب والسلم، ولكن...

ولكن لا بدّ ان يتّصف عدم التساهل ببعض المرونة بحيث لا يستقوي الأقوياء على من هم أضعف منهم، لئلا يتحالف هؤلاء في سبيل القضاء على الأقوى؟ لا بدّ من وضع حدود للقانون الدوليّ، للقانون العامّ كما للقانون الخاصّ، لا بدّ في كلا الحالتين من مناهضة إساءة استعمال الحقّ.

غير أن الحدّ من استعمال الحقّ يعني حتماً الحدّ من الاستقلال، يعني باسم الإخاء البشريّ أن يقوم بين قلب الإنسان وحاجات الانسان من جهة وبين الامتلاك والقدرة من جهة، رابط أسمى من الحقّ البحت، من القانون الجافّ ومن الاستخلاصات الصارمة.

على سلم الغد، لكي يستحق اسمه ولا يخونه، أن يأخذ بالحسبان الحاجة الملحّة، الحاجة الانسانية، الحاجة المختلجة.

هذا الخطاب موجّه الى الاستقلالات العظمى إزاء الاستقلالات النسبية، الأضيق نطاقاً. **فقد سبق أن تحقّقنا : أن بين جمهورية وجمهورية ثمّة تبعيّة وفارق نسب.** فالأسم هو عينه لكن المسمّى يختلف. لأن المفردة عينها تعبّر عن حالات مختلفة جداً، تعبّر عن مجموعة درجات الضعف والقوّة بكاملها.

الحقيقة هي أن الترابط المتبادل بين البشر يتوضّح أكثر فأكثر، والحقيقة هي أيضاً أن استقلالهم يزداد شرعيّة. ولا يفصل في هذا الأمر الاّ العقل والحكمة والعدالة، والمزايا الوطنية والخلقية.

فيما خصّنا، لا نأمل حلولاً عادلة لعالم الغد الاّ بقدر ما سيعترف عالم الغد انه كلّه، في النهاية، منوط بالخالق وبعدالته.

من سنة إلى سنة

٣١ كانون الأوّل ١٩٤٤

بين آخر كانون الأوّل الماضي واليوم أحداثٌ كثيرة جَرَت. حينذاك كان الألمان في أوكرانية لا يزالون في منعطف نهر دنيبر. ولم تكن في الغرب، للجهة الفرنسية، الاّ عزلة يواكبها صمت. وفي ايطالية كان الزحف البطيء يتواصل نحو رومة. لكنّ بشائر النصر كانت تتضاعف فتوطّد اليقين بالتحرّر النهائيّ.

ومع هذا ظلّت نقطة استفهام ضخمة ترتسم أمام العيون. هل أن إنزال الجيوش الى أوروبة سيحصل حقّاً؟ أين وكيف؟

أمور لا تصدّق حدثت خلال سنة واحدة جعلت تاريخ ١٩٤٤ حافلاً بالوقائع. وتحمل الأشهر الأثنا عشر التي انتهت اسم السنة الحاسمة. وسيكون الحدث الرئيسيّ انزال رجال الأساطيل الهائلة الى نورماندية، رجوع النورمانديين لتحرير أوروبة.

كم تغيّر كل شيء منذ سنة. في مسيرة الزمن قليلة أهمية سنة واحدة. ولكن بين عشرات السنين الظلماء نسبياً سنوات تحمل علامة القدر المميّزة. وسنوات الحرب كلّها هي من هذا النوع. وسنة ١٩٤٤ بعد سنة ١٩٤٠ في مركز الصدارة. فالسنة المنصرمة هذه توقّعت النصر توقّعاً جعلنا نعتقد ان في آخر كانون الأول تكون الحرب قد انتهت.

سندخل السنة الجديدة على دويّ المدفع. سنبدأها أمام مشهد مقاومة يائسة.

ولكن حتى توقّف القتال سترفع المقاومة، في المعسكر الآخر هذه المرّة، مستوى البلبلة والقلق... «ممّ سيتكوّن الغدُ؟».

اذا كان الارتياح قد بلغ أقصى حدّ حيال الخاتمة المحتومة والقريبة فلا بدّ لنا أن نواجه باحترام الأسابيع والشهور القادمة التي ستفضّ البشريّة خلالها خلافات الأمس واليوم في أنهر دماء.

ولكن أي أمجاد وأي مفاخر مقبلة تكفي لتعوّض عن هذا الدمار وهذه المجازر؟

مستقبل ألمانية

٥ كانون الثاني ١٩٤٥

إنّ الموقف الذي ستتّخذه الدول الكبرى المنتصرة حيال ألمانية بدأت تُسمع أصوات بارزة تناقشه. قال السير ستافورد كريبس، منذ يومين، في اجتماع عقده معمدانيّون: «يجب معاملة الألمان المنهزمين «معاملة أخوة في عائلة بشريّة». والسير ستافورد كريبس هذا رجل مرموق في انكلترة اليوم. إنه وزير. وكان وزيراً وسيكون كذلك. هو رجل عظيم. ويسلّم بأن للسياسة أحياناً حلولاً غير منتظرة، وأن أعظم المحن وأعظم الآلام لا تحول دون النسيان، وبالتالي لا ينبغي أن تكون مآسي كوڤنتري وبليموث، مثلاً، والقنابل الطيّارة وسائر القذائف، من كل عيار، عقبةً في سبيل الغفران. صحيح أن السير ستافورد تحدّث أول من أمس الى معمدانيين، أي الى إنجيليين يفعمهم روح الإخاء. لكنّه أكّد أيضاً، بصورة طبيعية، على الضرورة المطلقة لنزع سلاح ألمانية ومخالبها.

في هذا السياق سترتفع أصوات غير هذا الصوت وسيستمر الجدال حول الرحمة والعدالة. ثم حين يجب رسم الحدود وتأمين مستقبل ملايين البشر، وبالاختصار عقد السلم بعد أن تكون الأهواء الجامحة قد هدأت كفاية لكي تمكّن الحكمة الانسانيّة أن تبرز حضورها.

إذ نتناول هذا الموضوع، هذا الصباح، لا نتوخّى اتّخاذ موقف. فللأسلوب الشرس أنصاره، وللاسلوب الآخر أفكاره أيضاً. وقد تكون

الحقيقة، كما العادة، بعيدة عن هذا التطرّف كما عن ذاك.

لكن ثمّة أمراً كذلك لا يمكن نسيانه وهو أن حربين عظيمتين قد هزّتا العالم خلال عشرين سنة. وكانت الأولى ما تزال ماثلة في جميع الذاكرات بل في جميع الأجساد حين اشعلت الحرب الثانية النار في أوروبة.

في حلبة الصراع كان الأخصام الرئيسيون هم هم. في معسكر التحدّي والتعدّي كانت المانية القوية، المتكبّرة، عاشقة الحرب، المانية الدائمة، (ولا يبدو لنا أيّ من هذه النعوت يتجاوز الواقع والقصد).

فإن لم تصب الانسانيّة بالجنون فلا بدّ ان تفكّر جدياً بمستقبلها، بالحرب الثالثة التي قد تولد من سلم ثان أعرج، بالكارثة الثالثة التي قد تنجم بعد كل هذه المعارك، عن سوء تقديرٍ.

بعد حرب **الثلاثين سنة**، حرب التاريخ الحديث وقد بدأ اطلاق هذا الاسم على الحروب الاوروبية في هذا القرن منذ الجنرال ديغول، تقلّص عدد سكان ألمانية حينذاك الى ثلثه. ومن ١٨ مليون نسمة لم يبقَ من الألمان الآ ستة ملايين سنة ١٦٤٨. ثم أصبح عددهم سبعين مليوناً بعد ثلاثة قرون.

ما سيكون المستقبل لو نشبت حرب جديدة، تكون امتداداً لهذه، فوق رؤوس أبنائنا وأحفادنا؟

فلدرء هذا الخطر على القلب والإدراك معاً ان يتجرّدا من السلاح. وهذا يفترض ارتباطاً وثيقاً بين القوّة والعدالة والعقل.

ثلوج وخُدَع

١٧ كانون الثاني ١٩٤٥

تقلّبات أحوال جوّية، ثلج، برد. ورغم هذا، شمس الشتاء الجميلة تجعل من حين لآخر من الشتاء ربيعاً. ثلج في كل مكان، فوق الجبل وينعكس على هذا البياض فيض أشعّة وزرقة سماء.

كل وعود العالم تنتهي هنا عند شاطئ بحر هادئ تحت شمس ساطعة.

افكّر بالدبّابات، هناك، المطليّة بالأبيض، وبأولئك الجنود، باللباس الأبيض، وهم في معركة، من مشاة ومتزلجين سُذّج، أفكّر بالزخرفة البيضاء عند المناولة الأولى في غمرة دماء.

حيال الأنباء التي نقرأها والمشاهد التي نراها، لا بدّ أن نتبصّر ملياً بالبراءة والألوان. في خدمة الحرب وفي تكيّف الانسان شكلياً للدفاع أو للهجوم.

هذه الدبّابات الرهيبة المغمورة بالبياض تخفي تحت بياضها أطناناً من الفولاذ والحدائد فتبدو كأنها خيانة تفرض على الطبيعة.

هكذا في الشتاء الأوروبيّ القاسي تتواصل الحرب على جبهة الغرب، كما على جبهة الشرق.

الجيوش تتستّر، كما الأفكار تتخفّى، فالخدعة والوهم في خدمة الانسان فيما الحقيقة تتيه بين الغيوم القاتمة.

كلٌّ يمارس الحرب حسبما يستطيع، متذرّعاً بالحجة القاطعة في الدفاع

عن النفس. لكن الحرب الموشّحة بالبياض، هذه الحرب المُفاجئة، تخالها من بعيد، قبل أن يتلطّخ الثلج بالوحل والدماء، حرباً بالفراء، كما حرب الحواشي المزخرفة في الماضي البعيد. وفي كل هذا اعتبارات تمليها النباهة والفن العسكريّ واعتبارات جماليّة لو نظرنا اليها من زاوية ما (زاوية رسّام التاريخ مثلاً).

والنتيجة هي هذه: ما عاد يحقّ أو يجوز لنا أن نُخدع فنؤمن بالصداقة، بالبياض، بالبراءة، او بنقاوة الثلج، لأنّ الانسان وضع الأذى والشكّ حتى وراء الثلج.

ولكن ما أجمل صنّين تحت معطفه الأبيض!

العمل الذي يُنقذ

٢٣ كانون الثاني ١٩٤٥

«ستعزّز قريباً جداً تدابير مصادرة اليد العاملة لكي تتناول كل الفرنسيين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٤٠ سنة».

(من تصريح لوزير العمل الفرنسي السيّد پارودي)

ما أبعدنا عن أوقات الفراغ واللهو! نتذكّر بهزء عهد الكسل القانونيّ المفجع. نتذكّر أسبوع أربعين ساعة عمل بانتظار اسبوع الثلاثين ساعة ومعه الأذرع المكتوفة والفرص والراحة والبطالة واللهو. وحدَهم ذوو العمل الذهني يستمرّون بالعمل كالمحكومين بالأشغال الشاقة ويركضون ركض الكلاب. فالقانون، المتناهي القدسيّة، رفع الكسل الجليل، السامي، الى مرتبة الدين. وجعل من العمل نوعاً من عاهة، من حاجة موقّتة، فولّد، بحمقه، نزاعاً بين كدّ الانسان وبين اندفاعه وفرحه.

ملايين حالات من البؤس ولّدتها البطالة المأساوية سنة ١٨٣٦. وعن النظرة الفريدة الى الحياة التي خلطت بين العمل الحرّ، الشريف، والأشغال الشاقّة، نتجت الحرب ومعها العبوديّة.

أين هم حاكمو ذلك الحين؟ الفلاسفة بدون حكمة ولفيف الفشّارين الطنّانين؟ فمن يتحمّل مسؤولية هؤلاء الأنبياء الكذبة؟

في الإتّحاد السوفياتي، اليوم، يعملون بشجاعة سبعين ساعة في

الأسبوع، وجهد الإنسان المتواصل يُعتبر وسيلة الخلاص الوحيدة وفي إنكلترة وأميركة يعملون بجنون باسم المجد والنصر.

لكلّ أن يفكّر كما يشاء، ولكن فليوفّروا على عالم الغد هذا الجذام، هذا الكسل القانونيّ. ليفعلوا هذا ويتذكّروا بناة الكاتدرائيّات والحرفيّين والجنود وأصحاب المهَن، والعاملين في الأرض وجميع الروّاد الذين لا يتعبون والعرق يتصبّبَ من جباههم.

حين نُحرّر الانسان حقّاً عند ذاك ندعه يعمل كما يطيب له. أما نحن فاننا اعتنقنا بكلّ بساطة، كحقيقة أبديّة، الكلام المأثور الذي جاء في «الاقتداء بالمسيح»: «لماذا تطلبون الراحة طالما انكم خُلقتم للعمل؟».

صوت الڤاتيكان

٤ شباط ١٩٤٥

ان منظّمة لها رحابة الڤاتيكان في العالم، ولها مساعدوها البارزون الكثر والأمناء، فضلاً عن المكانة الدوليّة التي تتمتّع بها الكنيسة وهي تُسيطر، باسم الروحانيّات، على الغطرسات والعنصريّات، لا بدّ أن يكون لها حضورها كلّما التقى أسياد الحاضر في أي مكان.

إن الحرب أوشكت على النهاية. وناموس العالم يتمخّض في عدد من الأفكار، والحدود عادت تتحرّك من جديد. والشعوب تتطلّع الى مصائرها وهي تختمر في تأمّلات ومطامع منوّعة. فما من قوميّة الاّ وتعنى، على هدي أنانيتها، بقطاعها، بمصيرها. أمّا الكنيسة، ولها أبناؤها في كل بلد، وهي من حيث تحديدها، مؤسّسة إنسانيّة شاملة، فتستجيب لكلّ اللغات.

لذلك ما من سلم صحيح يُعقد ويدوم إن لم يُقرِّه الكرسيّ الرسوليّ عَلناً أو ضمناً. وهذا يُفسّر تسابق السفراء في كلّ مكان، جهراً أو سرّاً، الى الڤاتيكان.

من سياسة الأمم لا يخفى على الڤاتيكان أي شيء، هو يدرك كلّ أبعادها. ونأمل أن يؤخذ برأيه. ففي هذا المقرّ الروحيّ قوّة معنويّة لا تُضاهى ومخزون حكمة يتجدّد باستمرار. فأي مرجع أشدّ تجرّداً وشمولاً منه يُمكن الرجوع اليه؟ هذا أمر طبيعيّ بالنسبة للّذين يرون الألوهة في مؤسّسة الكنيسة. أمّا الآخرون فإنّ دوافع الحَذر والفطنة تقودهم الى هذه

الصخرة الثابتة منذ قديم الزمن، الصامدة بوجه المحن.

اليوم، كمن قبل، ينظرُ لبنان والكثيرون معه نظرة ثقة الى هذه الجهة. وبما خصّ قضايانا، كما مستقبل البلدان العربيّة، فإنّ للكرسيّ الرسولي دوراً يلعبه بين الشرق والغرب. ومن الواضح أن الكرسيّ الرسوليّ، في موقع الدفاع ضد القوّة منذ أجيال، يتمتّع بكلّ الصفة للإدلاء برأيه.

وعلى صعيد أشمل، في ساعة السلم، لا بدّ، تجنّباً لمستقبل يُخيّب الآمال، أن يُسمع صوتُ الكرسيّ الرسوليّ لكي يُميّز بين ما هو شرعيّ وبين ما ليس، أو لم يعُد، كذلك.

أربعاء الرماد تعود

١٥ شباط ١٩٤٥

أوهام! غبار غير محسوس. ها قد عاد رمزُ الرماد، تذكار الطين الذي منه جُبلنا. إن أغصان الزيتون، وكانت خضراء، السنة الماضية، قد تحوّلت الى عناَصرها الأبديّة. وبين أربعاء الرماد في العام المنصرم وبينه هذه السنة غفلة حلم. ومع هذا، في عصرنا، تحفل الحياة بالأحداث. فكلّ سنة من السنوات الأخيرة هي أغنى من قرون جماد وصمت. سنة واحدة من سنينا...

إن الأيّام لتتسارع في انقضائها تسارعاً جعلنا لا نتوقّف عند عدّها. فالروزنامة تسير على وتيرة الأشياء العتيقة، وهي بطيئة جداً بالنسبة الى الحمّى التي تساورنا وضئيلة جداً بالنسبة الى حرارة أشواقنا. بالأمس كان يوم الرماد، يوم كآبة الرماد وشعره. وتواضع الرماد وحنانه، والدغَدغة الشهوانية التي يُثيرها رمزُ الموت هذا، وكأنها لمسة يد باردة ناعمة، لمسة يد وهميّة.

منذ اكتشاف النار، على السطح الأرضي، ارتفعت جبال من الرماد. لكنّ النار الطبيعيّة وهذا الرماد المكدّس يتضاءلان أمام رماد آخر هو رماد ما بقي من لذّاتنا وأهوائنا. فمنذ زمن طواه النسيان ترمّدت أطماع وطاقات ومحاولات وجهود ولذات ونشوءات لا تُحصى، وفي كل سنة يتحول رماداً من جديد كل ما يخرجه الانسان من أعماق كيانه.

إن ما تردّده الكنيسة لنا، كلّ سنة، صباح أربعاء الرماد إنما هو نشيد الموت الذي لا يقلّ غنائيّة عن نشيد القيامة، نشيد تسبقه، عمداً، بعض نزواتنا.

«اذا الحبة لم تمتْ»، اذا الناس والظلال لا يتزاورون واذا اللامتناهي لا يوسّع؛ بشكل مدوّخ، آفاق كلّ صباح وكلّ مساء، وإذا الأهواء الأرضيّة وأجمل الوجوه لا تتحوّل رماداً فيكون هذا نقضاً للتصميم الإلهيّ وإلغاءً للربيع وحرماناً للتجدّد الدائم.

فلنتعلّم حبّ الرماد ولونه القاتم لأنه العقبة الأخيرة الفاصلة بين اللانهاية وبيننا.

بعد نهار من المشاغل

٣ آذار ١٩٤٥

هذا النهار المائل الى الغروب، وقد بدا الثلجُ فيه ورديَّ النور والجبلُ بنفسجياً قاتماً، ندرك روعته كأنّما هو حلم من الأحلام. هي لحظة ثم يتبدّل كلّ شيء. فأنّى لنا أن نُثبّت في قرارة الذاكرة ما يستحيل القبضُ عليه؟

ها، بطرفة عين، توشّحت الروعة بألوان أخرى. كتلٌ بيضاء وصخورٌ رماديّة تتعاقب. وفي البعيد يا له من جمال! فالسماء ما زالت بازرقاق ليليّ يميل الى العتمة بين لحظة ولحظة. هذا هو لبنان، وقد نجت أشجار لوزه التي ازهرت منذ أسبوعين، ينسلّ هارباً من قساوة الشتاء عند أولى أمسيات آذار. فهذا البلد الذي اجتمع فيه البحر والجبلُ والثلج والصنوبر وشقائق النعمان والشمس والألوان، يتميّز عن الأبعاد الشاسعة التي تحيط به. فاذا غاب الجبل والبحر عن اهتماماتنا فذاك دليل عجز في نفوسنا.

هل يمكن القيام بأيّ عمل إنسانيّ بدون الصداقة مع الطبيعة؟

إن للصحراء رونقها، فهي تتيح تذوّق التجرّد المرير الصافي وتدعو الى ارتياد النجوم. ولكن لكي نستطيع أن ننمو فيها يجب، للوصول اليها، أن تكون قد اختزنت ثروات داخليّة. فلكي تتمتّع الصحراء بكلّ طاقتها ينبغي أن تُملأ أولاً بحياة عميقة.

نحن هنا نعرف ما في الصحراء، نعرف عريها الحارّ، لكننا، بنعمة إلهية، خُصصنا بلبنان، هذا البلد المتنوّع الوجوه الذي يتعالى على عتبة

الرمال حيث يملك من بعيد عاهل الجزيرة العربيّة العظيم، ويرتفع حتى يبلغ الثلوج، على شاطئ البحر الخالد.

نقول هذا، ونحن على شرفة تطلّ على ساحة عامّة، نشاهد منظر المساء. إننا هنا نتعم حقاً بأهواء لا تحصى. ولا يسع أحد أن يصرفنا عن هذا الجوّ او ذاك بدون ان يبعدنا عن مصيرنا، ويحيد خطانا عن دروب ألفتها.

طالما أن عواطفنا، في تنوّعها المتناقض، قد بلغت مثل هذا الاكتمال فليسمح لنا أن نتلهّى لحظة عن مشاغل السياسة والحرب، وننصرف، مع القارئ، الى التنعّم بالطبيعة والحياة.

ملاحظات حول الشرق المعاصر

١٠ آذار ١٩٤٥

في الشرق الأدنى والأوسط كلّه لم تمارس، منذ أجيال، سياسة خارجية، بقدر ما هي تُمارس في الوقت الراهن. فقد انتهى الاحتكار الدبلوماسيّ الذي تولّته القسطنطينيّة، العاصمة العثمانية. والحبائل الملتوية التي كانت تحاك على شواطئ البوسفور أضحت ذكريات. والبابُ العالي، تخلّى عن علوّه للعواصم الجديدة أو المتجدّدة.

في كل مكان، بجوارنا، استيقظ الميل الى الشأن الدوليّ وهو أمر جيّد على صعيد الدوام. من أدقّ ما نلاحظ بصدد الشرق (الوسيط أو القريب) إنه لـم يعبأ بالغرب حين كان الغرب يزداد اهتماماً به، فانطوى على ذاته. ولا تُفسّر هذه المفارقة الاّ بتراجع في حب الاستطلاع وفي الاستقلال تراجعاً حاسماً. ذلك أنه خلال القرن التاسع عشر استولى الخَدَرُ على الأماكن التي سادت فيها اللغة العربيّة.

في الماضي البعيد، وطوال قرون، كان للشرق اطّلاعٌ واسعٌ عميق على شؤون الغرب. ومن هذا القبيل كان العصر البيزنطيّ نَيّراً ونشطاً جداً. ويُعتبر العصر العربيّ العظيم زمن الانفتاح الدولي البارز، لكنّ هذه الحياة الاجتماعيّة الدوليّة بدأت تتقلّص رويداً رويداً. والرحّالة الأوروبيّون الذين جازفوا بحياتهم في اكتشاف بعض أجزاء الجزيرة العربيّة كانوا يحسبون (على حقّ) أنهم يقومون بأعمال بطوليّة.

أمّا معظم شبّان جوارنا، من البحر المتوسّط الى الخليج الفارسي والى البحر الأحمر، فكانوا غرباء عن سائر اصقاع الأرض، كأنها بنظرهم قارّة أسطوريّة تراود أحلامهم، قارّة قد ابتلعها النوّ.

والآن (كما بمجرّد لمحة بصر) كلّ شيء تغيّر. حلّت محلّ الأثر الخامل، القديم، العهد الباقي من السلطنة العثمانية، صحوة إدراك وفورة فكريّة سرّعتها اكتشافات العلوم. وقد أزالت طرق الحور آخر العقبات إذ جعلت كلّ المُدن (وكلّ الحجُب) شفّافة، فاذا الأهواء الخامدة تتقّد من جديد والمُدُن الغافية والأشدّها سريّة تصبو الى الحياة (بمعنى الحركة). وإذا الطريق، في هذا العالم المغلق، تستعيد حقوقها بعنف.

على الغرب، بعد اليوم، أن يُجيب بغير الأفكار المسبقة والغنائيّة الرومنسيّة على هذه الصحوة. على هذا الهوى بالنور الشمسي، نَقيض الأقمار المعتدلة.

لقد ولّى عهد القوافل وجاء زمن صناعة التبريد والمعاونات الشماليّة، كتتمّة للسياسات الخارجيّة الأكثر تطوّراً علمياً.

الحياة عميقة

١٥ آذار ١٩٤٥

وجدت هذا العنوان وأنا افتح نشرة «الشبيبة الطلابيّة». إنّه لأمر مهمّ أن يتحدّث فتيان عن حياة عميقة حين كهولٌ كُثُر يحيَون حياةً سطحيّة. مع أن كلّ ما فينا وحولنا يتّصف بالعمق؛ الفكر والحلم والبدايات والنهاية والبيئة التي نتنفّس فيها، ونُظُم المجتمع ومستقبل الفرد ومستقبل الجميع.

المجتمع الحاليّ عليل ويحتاج معنوياً الى أوكسيجين. إنّه غارق في مفردات طنّانة ذاب الجوهر فيها.

إن الدعاية الخدّاعة، المُرتزقة، الرهيبة، غزت كلّ شيء. عدنا لا نُكلّف أنفسنا بأن نفكّر، بل بتنا نقبلُ كلّ شيء، نقبض كلّ شيء من الهذر والتدجيل ونظرات مُبهمة حول أمور باطلة زائلة.

مع أنّ الحياة عميقة. وها فتيانٌ في زهرة العمر يجهدون ليعلنوها إلينا ليُرشدونا الى الصواب، ليؤكّدوا ردّة فعلهم على التفاهة والفراغ.

الحياة عميقة أجل. هي تحتوي الخلق. وفيها الجمال والحبّ. والحقيقة التي يضطهدها الإنسان تسطع في الطبيعة. فالمادّة والحيوان والنبات والبحار والفضاء واللانهاية والروح أخيراً، وهو الأعظم، كلّها عمق يتضاعف وينمو. إنّ قدر العقل البشريّ أن يضيع في هذا المدى الشاسع لكي يجد ذاته ويسمو ويعبر ركضاً الأرض والسموات برشاقة لا توصف. ذلك أن العقل، ولو ضئيلاً ولو عليلاً، حقيقٌ باللانهائي لأنه إرثه الطبيعيّ.

في الوقت الراهن يتعجّل الناس للقيام بأعمالهم الصغيرة، في جوّ من اللامبالاة القاهرة، ولا يسألون أنفسهم لماذا وُجد على هذه الأرض غذاءٌ وكساء وأثاث وأوراق لعب ومخزونات من كلّ نوع ودفاتر «طلبيّات».

من المريح، في هذه البلبلة، أن نسمع من يردّد لنا أن الحياة عميقة، وأن آفاق الصباح والمساء تنتظر من يفضّ سرّها، وان الموتى هم أكثر بكثير من الأحياء، ومن الحكمة أن نُعنى أحياناً بمن هم وبما يفعلون.

لقد تقدّمت الشبيبة حقاً على الكهولة الرعناء.

لن نبني عالم الغد إلمّ نتذكر أنّ الحياة عميقة وأنّنا لا نُنشئ شيئاً لذواتنا، بل لأحفاد سينقلون بروحهم الحلم والمشعل الى الأخلاف.

الحرب والربيع

٢٠ آذار ١٩٤٥

إن السنة السادسة من هذه الحرب بلغت منتصفها. ومهما تطُلْ بعد اليوم فلن تتجاوز، في أوروبة، الأسابيع والشهور.

لا نقول عن هذه الحرب إنّها الكبرى والاّ لما استطعنا أنّ نطلق هذه التسمية على الحرب الأخرى! يا لغرور الانسان ما أشدّه! في الحروب، كما في مجموعة أحداث الحياة، كلّ شيء نسبيّ، المكان، الزمان، والباقي. وما بدا لنا بالأمس عظيماً لن يعود كذلك. وما يسحقنا اليوم سيتضاءل تأثيره علينا في غد. والنزاعات الكبيرة في هذا القرن ستبدو طفيفة إذا، بدافع طمع الانسّان أو بدافع الضرورة، امتدّت الحرب في المستقبل بوسائل، مجهولة بعدُ، الى عوالم أخرى لغزوها.

لن نسترسل في التخيّل والفكر عشيّة السلم، أو بالاحرى عشيّة توقف القتال في أوروبة، بل فلنتوقف قليلاً ونتذكّر ما كان الوضع عليه قبل ستّ سنوات.

كانت كلّ الأمم حينذاك تعيش تحت وطأة الخوف. كانت قد تعوّدت على العنف الذي تمارسه ألمانية دورياً. وكان ثمّة عاملان أحدهما في آذار والآخر في أيلول. ومنذ سنوات عدّة كانت الأرض تهتزّ مرتّين كل عام. وكان فرط التوتّر يبلغ حدّ الدُوار. وكان مصير الأرض كلّها منوطاً بعقل رجل واحد وبشذوذه. فقد انحطّ عصرُ الأنوار حتى ألغى شخصيّة

الشعوب والأفراد، بمصلحة حفنة من أدعياء الرؤى.

صحيح أنّ العلم كان يتقدّم فتظهر اكتشافات عظيمة، لكن كلّ ما بقي كان يتراجع، الروح، الإحساس، الشعر، حسن المعاشرة، العاطفة الإنسانيّة باختصار. ومن غرائب المفارقات أن ثلاثة آلاف سنة من الحضارة استدعت «نظاماً جديداً».

فكانت الحرب، وقد جاءت محتومة كالصاعقة بعد البرق. لكنّنا حسبنا أن الشعب الألمانيّ الذي حقّق النصر مرّات، بالتهديد، قد يتمهّل لكي يهضم «أكلة الأسد»، وأن الشعب الإيطاليّ وقد أصبح فجأة شبه حكَم على العالم قد يتردّد في الرهان على مجده ومصيره فلا يعرّض للخطر أمبراطوريّته الهشّة، الممتدّة من جنوى حتى البحر الأحمر.

الآن، في أوروبة، أوشكت الحرب على النهاية. فالمانية خسرت واليقين بالنتيجة جعل الناس أقْل اهتماماً بالخرائب والمجازر. لقد بدأت التصاميم حول أمور أخرى في كلّ الحقول... ذلك أننا، بحكم طبعنا المتقلّب، لا نستطيع أن نركّز انتباهنا على أي شيء لا ينطوي على قسم مجهول.

الاّ أن البؤس الذي أصاب العالم ما بلغ في أيّ وقت مضى، ما بلغه الآن من شدّة وهول.

كان لا بدّ لنا أن نذكر بإيجاز بهذه الأمور الخطيرة التي تصبح باطلة بعد حين.

لئن استُخلصت عبرةٌ من كلّ هذا فإنما هي أن ملكة النسيان في الانسان لا حدّ لها وأن هذه الملكة هي، ولا شك، من مقاصد الله.

غداً ينتهي الشتاء ويأتي الربيع. وفيما كلّ شيء يتغير تستمرّ مسيرة الخلق هي هي. وكلّ خُطب هتلر الآن تتضاءل قيمة أمام باقة من أزهار الحقول.

يوم الجمعة ذاك

الجمعة الحزينة ١٩٤٥

إن أوليّة الشأن الروحيّ تتّسم، بعض الأيّام، بطابع القوى المادّية. تُصبح محسوسة، تقع تحت النظر. والجمعة الحزينة هي أحد هذه الأيّام. ويشرّف الإنسانيّة المسيحيّة أن تحتفي بذكرى عشيّة ذاك السبت الفريد الدامي وهي تعبّر عن شعورها بالألم. إن مثل هذا الموضوع يهمّ جميع الناس حقّاً ويطرح للنقاش. هو، ولا شك، بنظر البعض، نوع من فدية أو افتداء، أمّا بالنَسبة للآخرين فيكفي أن يقودهم السّحر الروحيّ الى التأمّل في حدث هو من أهمّ ما سجّل التاريخ من أحداث حاسمة.

هل كانت لتقوم نزاعات دينّية لو قبل الناس أن يحترموا، قبل كلّ شيء، البحث اللاهف الى الحقيقة؟ طبعاً شرط أن يقوم الأكفاء بمثل هذا البحث.

إنه حقّاً لنهار عظيم يُفهم فيه معنى الانقطاع عن البيع والشراء للاهتمام بعمليّة أسمى، هي الاهتمام بنوع من صفقة على الحساب (ان جاز لنا استعمال هذه الكلمات البخسة، إنما المعبّرة) تتناول مجموعة البشر.

إنه لأمر خطير يستحقّ أن يوقفنا عن الاتّجار للتفكير بشيء آخر.

لو انقطع الإنسان عن النظر، بالحرارة عينها، الى هذا الجزء من التاريخ «الأساسي»، لو تعوّد أن يعتبر هذه الذكريات الاحتفاليّة أموراً عتيقة، بائخة، لو توقّف عن طرح سؤال الى الإله حول الفعل الأشد إذهالاً

وألوهة الذي حققّه على الأرض، فهذا يعني تقهقهر الحضارة، تقهقراً لا يُعوّض.

مهما يكن من أمر فإنّ الروح يستمّر السيدّ المُطلق. وقد أكدّت الحرب ذلك أكثر مما أكدّه أي شيء آخر، لا سيّما في هذه الجمعة الحزينة سنة ١٩٤٥ التي بشّرت بشكل باهر، وفي آن، بقيامة المسيح وبالنصر.

موت الذئب

٧ نيسان ١٩٤٥

هذه الحرب اليائسة التي ما فتئت المانية تشنّها ماذا تفيد؟ أي دليل جديد يُريد أن يُعطيه الفوهرر الهائج على متانة أعصاب شعبه وأهله؟ هل من أجل ڤاغنر جديد تستمرّ هذه المقاومة بدون هَدَف معقول؟ هل من أجل ثلاثّية موسيقية قاتمة مقبلة ؟ أم هل لسلسلة قصائد وثنية غليظة تمجدّ الدم الألماني المسفوك؟

إن الالمان، رجالاً ونساءً، يموتون تحت ثقل الأسلحة التي بدأوا هم إعدادها. وها هم يُسحقون بجميع أنواع القذائف والمتفجّرات المعروفة. وان لفروسية فتيات والكيري[1] نهاية ظلماء ولأناشيد بارسيفال[2] مواكبة مشؤومة.

ما نراه الآن في ألمانية يمكن أن نسمّيه بطولة لكنّها ليست بطولة واعية. فلئن هلك بعدُ عشرة ملايين ألماني في هذه المأساة، فهل سيُعادل هذه التضحية المجدُ التاريخيّ للفوهرر وشعبه؟ يا لفظاعة التفكير الفاسد! وبئس الأمر لألمانية وللألمان!

لمّا صمّم تشرشل والإنكليز سنة ١٩٤٠ على القتال، وهم ينزوون في

١ . Walkyries : العذارى التي كانت تُشرف على المعارك حسب الأسطورة.
٢ . «Parsifal» : دراما موسيقية لڤاغنر.

آخر معاقلهم، وعلى آخر شواطئهم. ولمّا أكّدوا أنهم قد يطلقون المدفع حتى نهاية العالم، كانت بطولتهم توازي هذه التضحية بإدراك رائع. كانت للانكليز حينذاك حظوظ بالغلبة، حظوظ قامت على المقاومة، على رباطة الجأش، على الشجاعة. أما بالنسبة لألمانية فالعكس صحيح، لأنّه لم يبقَ لها أيّ حظّ، حتى لو توسّط الإله، ونجرؤ على قول هذا. لقد ظهرت مقاصد الألوهة بكلّ قدرتها حول المانية. فهذه الدولة هبطت، خلال ستة أعوام، من علياء أوقح نصر الى قاع الهاوية.

إنّ تحدّي الموت شيءٌ وتعزيز حبّ الانتحار عند افلاس الكبرياء شيء آخر. ونحن ننحني باحترام أمام جميع الأبطال الذين سقطوا للدفاع عن عائلاتهم، عن وطنهم، عن أرضهم الجسدية، لكنّنا لن نذرف الدموع عينها على أولئك الذين يذهبون الى الموت بصفاء الأهواء التي من أجلها يسقطون وعلى أولئك الذين ينصاعون الى سعير خيبتهم.

للبطولة أشكال مختلفة. وحتى في البطولة درجات. فكلّ الذئاب لا تموت كما بات ذئب ألفريد دو ڤينيي. وحتى بين «موت الذئب» والموت البشريّ مسافة لا حدّ لها، هي المسافة الفاصلة بين الروح والغريزة.

إن المانية، هذا الربيع الدامي، تعرف أن تموت، لكنّها لا تقوى على القول بعقلانية لماذا تموت.

النشرات الإذاعيّة الألمانيّة

٢١ نيسان ١٩٤٥

ها قد بدأ يخفت صوت ألمانية.

إن المحطّات التي أذاعت، على مدى زمن طويل، نشرات تزرعُ شعارات ودسيسة وفتنة، هذه المحطّات الألمانية بدأت تسكت.

لن نسمع بعد اليوم الأصوات الجافّة التي كان يُطلقها الفوهرر وغوبلز وكبّار الصدّاحين من أعوانهما. حان وقتُ الصمت.

لقد نهضت النازيّة على أمواج الكلام. فالفيضان اللفظيّ هذا هو الذي بنى الريخ الثالث.

وحرب الأعصاب غذّتها أصلب حناجر الأرض طوال ستّ سنوات.

أمّا الآن فكلّ هذا قد انتهى. الآلة توقّفت عن الحركة والجُهد الذي لم يُعهد من قبل لإطلاق الصوت البشريّ في خدمة الدعاية وخفاياها المريبة، قد خار وتحوّل الى نحيب.

صحيحُ أن موسيقى رائعة غطّت هذه الأصوات الجهنّمية. وصحيح أن باخ وموزارت وبتهوفن قد حدّوا من وطأة الزعيق والصخب وكذلك ألحان شتراوس وأناشيد الحنين من النمسا المستعبدة.

من كلّ هذا التنظيم العجيب للزيف والكذب لن يبقى شيء في غد. وإلى أن تستعيد الموسيقى سحرها فإن الموسيقى الصامتة أجدر بالإثارَة والتأمل من التهتك الشفويّ الذي مارسته المانية المعاصرة.

لقد اعترى الصمت ألمانية بأسرها. فهي طوال عشرين سنة لم تعش الاّ في ضجيج المهرجانات وجنونها.

لئن كنت المانية تأمل بعد أي موقف كريم من أعدائها حيالها، فما لها الاّ أن تلوذ بالموسيقى وبالصمت.

حقّ اللجوء

٢٦ نيسان ١٩٤٥

من الأمور المثيرة، في هذه الحرب وفي هذا الزمن، أن نرى بعض الناس قد حرموا من ملجأ حيثما ان في أوروبة، وربما في العالم وحُظّرت كلّ الأراضي عليهم. وليس ثمّة ما يحميهم من عدالة تنتظرهم، ولا سبيلَ لهم، أينما ذهبوا، الاّ الموت.

لا مكانَ على الأرض استمر فيه حقّ اللجّؤ. بالأمس البعيد كانت كنيسة واحدة تكفي لهذه الغاية. أمّا اليوم فبلد مستقلّ، كبيراً كان أم صغيراً، عاد لا يكفي.

إنه، بمعنى ما، ارتداد الى الوراء، لكنها بمعنى آخر أيضاً هي العدالة. كان في ممارسة حقّ اللجوء نبلٌ لا يُنكر. والأماكن التي امتازت بحماية الانسان البريء أو المجرم من غضبة الملوك والجماهير اتّسمت بطابع مقدّس. كانت مظاهر العنف كلّها تتلاشى أمام القوّة المعنويّة، أمام بادرة من الروح تسيطر عليها.

بيد أن من الطبيعيّ أيضاً أن تلقى بعض الجرائم عقاباً حيثما اقتُرفت وأن تُعتبر من الخطورة بحيثُ الأرض كلّها لا تحتويها. وقد أعطتنا هذه الحرب عنها أمثلة عدّة.

إنه لمشهد أليم مشهدُ السياسيّين الذين فشلت سياستهم وهم يهيمون بين بلد وبلد ولا يُقبلون وقد حملوا اللعنة فوق رؤوسهم كما حملها أوديب من قبل.

إن حقّ اللجوء قد ولّى زمانه. والبؤس اليوم يستدعي رحمة أقلّ مما كانت يستدعي في أيام سوفوكليس.

ما عسانا نرى في هذا الآّ عودة حُكم العدالة أخيراً!

زمن الرقاد

٢٨ نيسان ١٩٤٥

بعد زمن الرُعب الذي كانت تُثيره القنابل الطيّارة والصواريخ القتّالة عرفت لُندن أخيراً لذّة النوم.

من الفكاهات البريطانيّة التي تُروى أنّ نائباً سأل رئيس الوزارة هل يستطيع أن يُدلي، في مجلس العموم، ببيان حول الهجمات الألمانيّة بالصواريخ، فأجابه تشرشل مقهقهاً: «أجل يا سيدي، لقد توقفت».

لكنّ أحد هذه الأسلحة الجهنميّة قضى يوماً على ١٦٧ شخصاً بلحظة واحدة. وقد حدثت هذه الجريمة في محلاّت وولورث الكبرى ساعةَ الغداء، حين تجمهرت هناك نساء وأطفال.

إن هذا النوع من الحرب لم يدخل في توقّعات المتمدّنين حين كانوا يتدارسون، زمن السلم، قوانين الحرب. فلماذا الصليب الأحمر، مثلاً، إذا كان هذا الأمر مسموحاً به؟ وما معنى الخطابات العاطفيّة حول ما حققته البشريّة من تقدّم؟

إن ما لم تُقرّه العهود جاءت المدنيّة الألمانية تفاخر بإقراره، ما أجمل محاولة إرغام العدوّ على الاستسلام عن طريق قتل نسائه وأطفاله من بعيد!

الآن برلين تشتعل ولندن تنعم بالرقاد. فكلّ سكّان جنوبيّ غربيّ إنكلترة، الذين قاسوا هذه المحنة الرهيبة، ينامون بهدوء بينما ألمانية عادت لا تستطيع أن تنام. لقد انعكست الآية- فالعنف، على ما يظهر، لا يدوم،

ولكلّ شيء نهاية.

بما أن زمن القنابل والصواريخ، التي هطلت على إنكلترة قد ولىّ فينبغي أن نعرب للإنكليز عن الإجلال الذي استحقّوه. فالبشريّة، بفضلهم، ما عظمَ مقامها قطّ بقدر ما عظم طوال الليل بلا نهاية الذي قضوه. فباستذكار هذه الأمور والأمجاد، المشتركة يجب على الإنكليز والفرنسيين بعد الآن أن يشعروا بأنهم أوثق صلة فيعزموا على الدفاع معاً عمّا كاد يضيع.

أوروبة ١٩٤٥

٥ أيّار ١٩٤٥

ها أوروبة على منعطف حاسم.

ماذا سيفعل المنتصرون بانتصارهم؟ هل سيبنون بأيديهم السلم المُنتظر بلهفة أم هل سيقعون في حبائل «الشقاق».

إن الماضي حافل بالعبر المفجعة. فكلّ حرب ولدّت حرباً أفظع وكلّ شقاق انتجه شقاق، لأن البناء وقد اعترته عيوب، كان ينهار وكان لانهياره، كلّ مرة، دويّ أشدّ.

إن أوروبة وُلدت من آسية في قديم الزمان، ثم سيطرت على العالم من بعد. ان أوروبة التي أخرجت من أحشائها شعوب القارات الجديدة هل ستعود الى الصواب أم ستُهيء لأنواع جديدة من الجنون؟

من شأن قوّة العلم والاكتشاف أن تقود الى العظمة أو أن تقود الى الدمار. لقد عمّ الخراب أوروبة بانتصارها على ذاتها، كأن آسية كلّها انقضّت عليها. وهي الآن مغمورة بالدخان، مقطوعة النفس.

لكن أوروبة، رغم أنّها أصيبت في صميم مآتيها، ما تزال هي هي على كلّ حال، ولها من وسائلها ما يجعلها تنجو من الغرق، ما يجعلها هي السفينة بعيد الطوفان. الاّ أننا، بالحقيقة، ما رأينا بعدُ الحمامة بوضوح.

---

١ . Discorde : ابنة الليل، الأسطورية، التي تحفز على القتال فتجلب البؤس.

قد لا يكون الآن وقت الاضطراب، بل وقت الاغتباط بالنصر الفريد، وقت تحيّة شروق الشمس المنتظر بعد ست سنوات ظلام. ولكن لا بدّ، مع هذا، أن نحسب حساب الشيطان، وحساب الرغبة الخفية باغتنام الظروف، وحساب خَوَر الإدراك.

نحن ممّن يؤمنون بمستقبل أوروبة، أوروبة المنبعثة، العائدة الى الرُشد، الى النظام بعد الكارثة. لكن هذا يفترض أن يعود الأوروبّيون الى دراسة تاريخهم لكي لا يحفظوا منه الاّ ما يدعو الى التحّاب والإتّحاد.

حرّية العالم

٨ أيار ١٩٤٥

أمام باقة من زهر الجلبّان العطر وهي ربيع بحدّ ذاتها، أفكّر بإعلان وقف النار هذا الذي انتظرناه طويلاً والذي يُشير الى نهاية عالم.

ها الحرية عادت إذن تُزهر من جديد.

لقد انهارت أمبراطوريّة متسلّطة بُنيت «لألف سنة»، وغرق جبلٌ من الكبرياء في بحر الظلمات. وما كان يُزعم «بطولة» رجل، ثمّ شعب، انتهى الى فوضى لا تُحدّ.

من خلال هذا الواقع تبدو لنا الطريق الطويلة الفاصلة بين الفكرة وتجسيدها، وتبدو قدرتنا الخارقة، ويبدو عجزنا.

لا بدّ من عودة جديدة الى پاسكال لنحاول أن نقيس ما لا يقاس في نشوة الانتصار المُستحَق أكثر من أي انتصار آخر، ردّدت لندن هذا الصباح مرّة أخرى نشيدها: «نحاربُ في سبيل حريّة العالم».

وفي الجانب الآخر من البحار، كما لو كان يمكن بعدُ تجنّب استسلام ألمانية، الذي تأخر الى أقصى حدّ، سمعنا اليابان تشكو من تعرضّها لخيانة. وليس ذا بشير خير بالنسبة لليابان.

«نحارب في سبيل حرية العالم» يا له من هدف ولا أسمى! ففي كلّ ميادين القتال كانت الحرية ولا تزال هي الرهان الأهمّ.

«نحاربُ في سبيل حرية العالم»، الآن وقد جاءتنا الحريّة فما عسانا

نفعل بها؟ الى أيّ بهجة ستقود العالم أو الى اي قيود؟ فهل كل ما بُذل من دماء ودموع سيؤول الى اعتدال، الى طمأنينة، الى سعادة؟

وددنا لو أعطينا اليوم تفسيراً رسمياً للحريّة، تلك الحريّة التي حارب الإنكليز من أجلها وما زالوا يحاربون. إن هذه الحريّة نعرفها تماماً وقد ألفناها، هي تشبه حريّتهم ونحن نحبّها. ولكن ثمّة أشكالاً أخرى للحريّة تُعرض على البشر. فما هي؟ ولمن أُعدّت؟ فهل من يقول لنا؟ وبانتظار الجواب علينا أن نتمتّع بعظمة النصر!

عودة السيّد هريو إلى فرنسة

٨ أيّار ١٩٤٥

يُذكّرني إدوار هريو العائد من ألمانية، عن طريق روسية والشرق الأدنى، بمقال هنري هينه: «قاذفا القنابل» ولا أدري لماذا. إن هذا الرجل يمثّل وحده قاذفَي القنابل معاً.

سبق لبيروت أن رأت هريو قبل سنوات من الحرب. رأته بغليونه ومجده، وكانا لا يفارقانه. ويحزننا الآن أنه عاد لا يُدخّن.

إن عمدة مدينة ليون، وقد حمل دائماً هذا اللقب كأنّه وراثيّ، تقدّم في السنّ ككلّ واحد منّا. بدا محدودباً أكثر من قبل في الصُور التي أُخذت له في دمشق. وكيف لا يكون هكذا وقد قاسى ما قاساه من محن وآلام؟ إلاّ لأن رياح النصر كفيلة بأن تجدّد شبابه. وإنّنا لنتمنّى حياةً طوَيلة لقلبه الكبير ولشرايينه.

لقد أعادت ليون بكّل فخر انتخاب السيّد هريو عمدةً لها. وفرنسة تستعدّ كما يجب لاستقبال هذا الديمقراطيّ التقدّمي، أمير الثورة.

في الغد سيكون هريو، رغم تطرّفه الديمقراطيّ، من العناصر المُهدّئة في فرنسة. فبعَد سنتين قضاهما سجين ألمانية والرومنسيّة الألمانيّة لا بدّ أن يكون تخيّب. فأي حنين هاجه إلى «الغابة النورماندية» وإلى «باب المحيط؟»[1].

١ . من قصيدة لهنري هينه، الألماني الذي أحبّ فرنسة وعاش فيها.

أي ذكريات عاودته عن الروائع الكلاسيكيّة التي أحبّ بعد أن عبث بها الدنسُ والنهب؟

أيقنّا دائماً بأن إدوار هريو، المتعصّب لوطنه، يتميّز بالحكمة وبالنزعة الفلسفيّة. ولن نلومه لو حافظ، حتى في شيخوخته، على حماس الصبا المجيد. ولكن بأي عين جديدة سينظر إلى فرنسة؟ وأي نداء إلى الكلاسيكيّة سيوجّهه اليه منظر فرنسة؟ وأي اضطراب سيهزّ رأسه الوقور.

مُعارضٌ هريو، ساخر، علاّمة، عليم بالثقافة الإنسانيّة، خطيب (شاعر فَي الصميم)، مُحام عن الشعب، (أبوي شغوف) ومبتدع «الفرنسيّ الوسط»، إنه يمثّل وجهاً من أحبّ وجوه الفرنسيّ بوجه عام.

إن هريو من أولئك الجمهوريين المُتخلّفين المحافظين، من أولئك الأصفياء الذين اعتنقوا العقيدة التي تؤكّد طيبة الإنسان الفطريّة ولا يغيّرون رأيهم عند ثبوت العكس، بل يقترحون الخيار بين الإخاء والموت.

ولكن، مع الأسف، على مدى سنين طويلة، انتصر الموت على الإخاء. ولعلّ الوقت قد حان من جديد لاقتراح الإخاء بدون الموت.

وهذا يفترض عاملاً روحيّاً قد يكون هريو جاء بحقيقته وسرّه من خبرة اعتقاله.

إنكلترة وإرلندة

١٦ أيّار ١٩٤٥

إن اغتياظ إرلندة من إنكلترة في الماضي فهمناه، كما نفهم اليوم غضبة إنكلترة على إرلندة. فقد تكلّم تشرشل، نهار الأحد، بلهجة قاسية جداً عن إرلندة. تكلّم بقلب مجروح. لأن في أحلك الأوقات حين كانت جارتها إنكلترة تنوء تحت عبء الأخطار الساحقة، استمرّت إرلندة في موقف لامبالاة وعدم اكتراث.

قد يُكتب الكثير حول الحكاية القديمة بين إنكلترة وإرلندة. وقد كان للصراعات الدينيّة، دورها فيها. وذكريات الاضطهاد القديم العهد ما غيّبها النسيان بعد. ولكن، رغم كل هذا، حان وقت الغفران المتبادل، حان وقت التفاهم بين الطرفين، كما قال تشرشل بأسلوبه المنطقي الخاصّ.

لقد سجّلت إرلندة بحيادها الصارم على إنكلترة ثأراً اعتبره كثيرون من الكاثوليك مفرطاً. لكنّ العدل يقضي بأن نضع أنفسنا مكان الإرلنديين لنفهم ما قاسوه.

بيد أن إنكلترة، وهي ما تعرّضت لاستقلال إرلندة تعرّضاً بليغاً حتى في أقصى حالات الضرورة، قد تصرّفت بشهامة رائعة. فحين كانت تستميت في الدفاع عن حياتها كان ممثلو ألمانية واليابان في دوبلن يتغطرسون ويتهكّمون. وحين كانت إنكلترة، في حرب الغواصّات الشرسة، تفقد سفنها في المحيط الأطلسيّ ولا تستطيع أن تحتمي على شاطئ إرلندة

الغربيّ»، استمرت إرلندة تعاملها بالطريقة عينها التي عاملت بها أعداءها.

الآن حان وقت الغفران المتبادل. فعلى مرّ السنين تغيّر موقف إنكلترة الدينيّ وحلّ التساهل محلّ التعصّب، وتطورت البروتستانتيّة المتزمّتة بسرعة نحو مواقف عميقة بإنسانيتها.

ألم يؤات الزمن بعدُ لعقد سلم أعمق بين الديانات وقد وجب أن تتواضع كلّها في حضرة الإله الأبديّ.

إن واقع إرلندة تجاه إنكلترة ليهزّ المشاعر. ولكن ثمّة وقائع أخرى جديرة أيضاً بالتأمل. ما من دين يحيا في الحقد والضغينة، بل في الصبر وفي روح العدالة والإخاء، وخصوصاً في الغفران.

تنويعات حول الراديكاليّين

٢١ حزيران ١٩٤٥

صوّت الحزب الراديكاليّ المجتمع في باريس على اقتراحين يُحدّدان سياسته. داخلياً هو، طبعاً، يعارض الاستفتاء الشعبيّ وكلّ أشكال السلطة الفرديّة. وخارجياً يريد وحدة الحلفاء وهي ضروريّة للسلم، وهو، يأسف لأن الميثاق الفرنسيّ البريطانيّ لم ينعقد بعد، وقد تناول علاقات الدولتين في العالم.

وجهان تقليديّان للموقف الراديكاليّ ينمّان، بعد صمت دام خمس سنوات، عن حيويّة متجدّدة. وكلاهما يعنيان سياستنا الخارجيّة.

في هذه المناسبة. رأينا من جديد السيّد تيودور ستيغ، وكأنّه عائد من القبر، يرئس هذا الاجتماع.

لقد قضى ستيغ، وهو ركن الجمهوريّة الثالثة، كل حياته مرتدياً اللباس الرسميّ (الردينغوت) لكثرة ما تولّى من مناصب جمهوريّة عُليا. إنه، وقد كاد يبلغ الثمانين، يُذكرنا باجتماع كهنة مجنديّن في عالم الأشباح.

لقد بلغت القطيعة التي سبّبتها الحرب حدّاً جعلنا نحسب معه أننا قريبون من ممثّلي الجمعيّات السياسيّة سنة ١٧٨٩ قُربَنا من شيوخ السياسة الفرنسيّة سنة ١٩٣٩، كأن مرحلة ١٥٠ سنة غابت أمام نظرتنا المستقبليّة إلى آفاق عالم جديد وما تثيره من اضطراب.

لا شكّ أن الراديكاليّة الفرنسيّة، رغم وثبتها الأخيرة، قد شاخت،

وكانت اهتماماتها الجمهوريّة دائماً ضيّقة المجال. فهي، رغم مزاياها الوطنيّة، تفتقد إلى إيمان كاف بمصير روحيّ لفرنسة وللعالم. فلئن غَزت الوطنيّة الثوريّة عقيدتها فإن هذه العقيدة أثقلتها بيانات لفظيّة مرّ عليها الزمن، وكأنها ترديد أصداء خُطباء الثورة الفرنسيّة.

مع هذا، يغبطنا أن نسمع الناس من جديد يتحدّثون عن الحزب الراديكاليّ كتنظيم مناضل، فهو بين جميع الأحزاب الفرنسيّة ما زال أشدّها مرونة في الوقت الحاضر والأقوى على لجم تصاعد الإيديولوجيّات والأهواء الجامحة.

ولكن إذا لم يتجدّد الراديكاليّون تجدّداً كاملاً فإنّهم لن يستطيعوا أن يبقوا في فرنسة «الحزب الحكوميّ الأكبر» كما كانوا من قبل.

لا بدّ ههنا، طبعاً، من استثناء واحد هو أن شعبيّة إدوار هريو الكبيرة في فرنسة وفي الخارج هي بين آخر القوى التي يتمتّع بها الحزب الرايكاليّ. ولا يمكن تصوّر الراديكاليّة بدون إدوار هريو بغليونه أو بدون غليونه. ولا يسعنا إلاّ أن نفكّر به بعد أن مررنا على ذكر وجه تيودور ستيغ الجاف، المُلتحي، المهيب.

كلمات ضائعة

٧ تموز ١٩٤٥

كالسنديانة أو شجرة الدلب على طرف الطريق ننظر إلى الأيّام وهي تمرّ. الأحداث تنشأ، تتراكم، تتشابك ثم تنقضي، وأفكارنا تتابع تنوّع الأشياء في ثبات المنظر الطبيعيّ.

ان لكل يوم همّه. ونحن يُشغلنا جميعنا الظلم الذي يتهدّدنا وتشغلنا العدالة التي نتوق اليها. وعلينا الاستمرار بأداء واجب الخدمة والدفاع عن الذات. وهل الحياة، طويلة كانت أم قصيرة، إلاّ خدمة ونضال؟ وهي أيضاً عجزنا عن مكاشفة الجمهور بما نرغب به وبما نحبّ.

على طرف الطريق ننظر إلى الناس يمرّون وإلى أفكارهم ومشاريعهم الواضحة والمبهمة، وفي تحرّك المارّ نحاول أن نميّز بين الخير الذي يريده لنفسه وبين الشرّ، ويا للأسف، الذي قد يريدُه لنا. إن المكان العائم، العميق، الفسيح، في الأدمغة حيثُ تختمر مشاريع يُعدّها الانسان، على حساب راحته وراحة أمثاله، إن هذا المختبر الخالي من النوافذ ليؤلمنا ويقلقنا.

من الوهم الاعتقاد بأنّ الأعمال، أيّاً تكن، أصعبها كما أبسطها، تبرّر وقفة على الطريق من أجل تأمل باطنيّ مضطرب. دقيقة يتساءل خلالها هل تستحقّ الأشياء العابرة كلّ هذا الصراع؟

هذه هي عبارات لا تتّسمُ بطابع أدبيّ وغريبة عن كلّ سياسة، لكنّها،

وقد امتزجت بعياء الصيف، تدعو القارئ الحكيم إلى مزيد من الحكمة والمنطق والصبر.

لن نقوم قطّ بسياسة متطرّفة لو جعلنا روائعنا الطبيعيّة تتأثر أحياناً بأنفسنا، لو أننا، كشجرة الدلب أو السنديانة، بذلنا جهداً لكي نقيس الحركة في سكينة الصفاء.

نسبيّة

٢٠ تموز ١٩٤٥

إن الشخصيّات العظيمة الثلاث المجتمعة في پوتسدام، وتحاول، على مقاعدها الثلاثة، أن تقرّر مصير الأمم تمثّل تمثيلاً بليغاً الديمقراطيّة المعاصرة. في هذا المكان هنا قادَةُ شعوب ينظرون إلى مستقبل الكون نظرات مختلفة إن لم نقل متناقضة.

الإنكليزيّ والأميركيّ، من جهة، وقد امتدّت سلطتهما المباشرة وغير المباشرة على مليار من البشر، ومن جهة أخرى الروسيّ على رأس مئتي مليون نسمة (وعدد لا يُحدّ من الأنصار) في أكبر مساحة أرضيّة متماسكة تحت السماء.

ثلاثتهم يتكلّمون باسم الديمقراطيّة، ثلاثتهم يطمحون طموحاً مجيداً إلى إعادة بناء العالم.

الإنكليزيّ والأميركيّ روحيّا النزعة، أمّا الروسيّ فلا (مع احترامنا للكنيسة الروسية ورؤسائها). والحضارات التي يدافعون عنها أو يشيّدونها تختلف في نقطة الوصول كما في نقطة الانطلاق. لكنّهم جميعهم يشغفون بالتقدم وبالعلوم والفنون ويرومون، ولا شكّ، سعادة البشر.

إن كلّ سياسة لا ترمي إلى هذا الهدف الأسمى هي خيانة حقّاً. لكنّ من الخطورة بمكان أن لا يتمّ اتّفاق على الوسائل الأساسيّة التي تحقّق سعادة البشريّة.

في بوتسدام معضلات ضخمة تُطرح وتشغل بعض ألمع الأدمغة في العالم هي مستقبل أوروبة، حريّة المحيطات والبحار، الشرق الأوسط...

عندما تعالج هذه المسائل، لا سيّما مسألة الشرق الأوسط، فكم سيكون في الميزان ثقلُ سعادة البشر؟ إلى أيّ حدّ سيتنازل هذا الجانب أو ذاك لمنع البشر من الاقتتال؟

تأمّلوا كم أن كلّ شيء نسبيّ! فالمواطنون الذي يعبّر باسمهم أسيادنا الثلاثة العظام يشاركون في النقاش كما تشارك الغيوم في تكوين البحار. ثمّة تصويت لا يُعدّ وبعيد خول، بتاريخ معيّن. بعض الأدمغة حقّ تقييد الشعوب وتحريرها. والديمقراطيّة تلقى، نظريّاً، ارتياحاً رائعاً، لأنّها، في الواقع، تثق ببعض أشخاص تتعارض آراؤهم حول قضايا رئيسيّة.

لو أننا اتّكلنا فقط على العبقريّات البشريّة فإن أسباباً كثيرة تدعونا إلى القلق والحيرة.

خاطرة ليليّة

٣ آب ١٩٤٥

إن بضعة أيّام قيظ أضرّت بأعمالنا، إن لم نقل بنشاطنا. هوذا الوقت الذي يُضاف فيه نيران سيريوس إلى نيران الشمس. فهذه النجمة، أجمل ما في السماء، هي شمس أكبر بكثير من شمسنا، لكنّها بعيدة عنّا إلى حدّ بتنا معه لا نفكّر بها.

إنّنا لا ننظر كفايةً إلى القبّة الزرقاء والنجوم. ففي ليالي آب هذه، والسماء شديدة الصفاء بدل أن تشغلنا مسائل تجاور اللانهاية، نرانا نسترسل في الكسل الذي يدعونا الحرّ اليه مع أنّ في هذا البلد الشفّاف ما من لذة بين كلّ لذّات الصيف تساوي التأمل قبالة النجوم على شرفة مكشوفة.

الأهواء تهدأ والسياسة تتقلّص والمال ينقص قيمةً. وحتى الحبّ ينقى والأصوات تهبط تحت ثقل الكواكب وتعود مشاريعنا إلى أحجامها الحقيقيّة.

نكاد لا نفهم لماذا نُعير اهتماماً قليلاً بالأسئلة التي تلحّ علينا من كلّ دائرة رياح، من كلّ قطاع في الليل المكوكب. إن فيها سلواناً عن مصاعبنا، عن عياء النهار.

ذلك، والحقّ يقال، أنّ الحرّ يُرهق أحياناً. فابتداءً من الظهيرة تشتدّ الحرارة في المدينة اشتداداً يُذيب ثلوج القطب. والعمل يسير ببطء لأنّنا لا

نقوى على التوقّف عن العمل، عن الحياة. ولكن يستحيل، في مثل هذه الساعات، نظم قصيد رائع. ويخور الحماس بانتظار أول نسمة منعشة.

من حسن الحظ أنّ شدة القيظ لا تدوم إلاّ أيّاماً قليلة، وأن هذا الطقس ليس طقسنا المألوف. ولكن ألان نرى تماماً ما أثقل هذا العبء على أعناق أبناء البلدان الحارّة؟

لذا يتغنّى الشرق بالليل كما ببلسم، ولذا حلّ في الشرق رمز القمر محلّ رمز الشمس.

يجب في لبنان أن يخفّف الجبل أكثر فأكثر من مضايقات الصيف وأن ينتقل التأمّل والفلسفة مع الحياة وأشغالها إلى الأعالي.

إن لدينا كل ما يلزم لبلوغ هذا الاعتدال كما أمور أخرى. وإلى هذا ينبغي أيضاً أن نفكّر بشهر آب، تحت أنوار النجوم.

مساواة وإخاء

٥ آب ١٩٤٥

كان بوسعنا، أمس ٤ آب، أن نتذكّر مرّة أخرى تلك الليلة الشهيرة التي شهدت في فرنسة إلغاء الامتيازات.

يغلب على الظنّ أن الكيل كان قد طفح حينذاك بالنسبة للفرنسيّين من منّة إلى منّة أُغدقت على قلّة من العائلات والأفراد، تصرّف هؤلاء تصرّف الآلهة حيال الشعب المسكين. (صحيح ان كلّ الامتيازات مجتمعة لم تُسعد أولئك الناس). وكانت ثمّة أمور لا تُحتمل في جوار أناس متشابهين، بعضهم خضع للقوانين وبعضهم خرج عليها حسب وضع كلّ منهم. فالاقطاعيّة وقد بدأت شرعيّة ومشرّفة بفضل نظام قائم بين حماة ومحميّين، انتهت إلى صورة كاريكاتوريّة لما كان في الأصل بطوليّاً نبيلاً.

كان للأشراف، أساساً، امتيازٌ رائعٌ هو خوض الحرب دفاعاً عن الحقّ والقتال حتى الموت.

وكان لهذا أهميّة بنظر الفلاّح ووضيع النسب. لكن الستة أو السبعة قرون التي استمر فيها هذا النظام أنهكته. فأعترت هذا النهج الجميل شوائب شتّى حملت الشعب، شيئاً فشيئاً، على كره أصحاب الامتيازات ودفعت ممثّليهم، ليلة ٤ آب ١٧٨٩ تلك، على التخلّي عن كل شيء حبّاً بالقريب، في ساعة حماس عاطفيّ لاهب. فإذا طبقات الأشراف والإكليروس والبورجوازيين تتعانق باسم المساواة والإخاء.

إن المساواة تقدّمت مذّاك، لكن الإخاء تراجع نوعاً ما. فباسم المساواة، في أيامنا، يُحمل حتى على اللامساواة بفعل الطبيعة، فحلّ محلّ التحابّ الحسد والرغائب السيئة التي تمجّد وتشجع، فكان انتقال من تطرّف إلى تطرّف آخر. وأثارت ذكرى ليلة ٤ آب أولئك الذين رأوا أن الآلهة ما أعزّت البشر ولا وهبتهم بالتساوي. ذلك أن الذكاء، بالنهاية، هو امتياز وكذلك الموهبة والجمال. وهل يمكن، بحجة المعادلة، انتزاع، احدى هذه الميزات ممّن يتّحدون بها لكي يصابوا بالخبل والقبح باسم المساواة؟

لن يكون اصلاح هذا الخلل إلاّ بالإخاء. والإخاء ليس قانوناً، بل مثاليّة تجذب الناس اليها.

بما أننا، على ما يبدو، نتجّه، طوعاً أو قسراً، نحو ليلة ٤ آب جديدة تستهدف هذه المرّة المدنيّة (وهي أيضاً امتياز) كان لا بدّ لنا، هذا الصباح أن نخصّ هذا الموضوع الخطير ببعض سطور.

سلم المحيط الهادئ

١٤ آب ١٩٤٥

يمكن القول إن الحرب أصبحت هي القاعدة فلا نخرج منها إلاّ لندخل في المجهول. فهل خُلق البشر، بطبيعتهم، للسلم أم للقتال؟ في السلم يقلقون، يساورهم حسّ اغتراب. لكأننا تعودّنا مجاورة الجحيم. ولا يقولنّ أحد إن هذا البلد لم يقاس، فالمرء لا يقاسي لذاته فقط وفي سبيلها، بل يقاسي، مع الغير أيضاً وفيَ سبيله. وليس كلّ ما في الحياة غذاء ورفاهاً.

هنالك، ولا شكّ، كثرة من النفوس القاسية والقلوب العديمة الحسّ، لكن هنالك أيضاً بشريّة لامستها النعمة ولامسها الألم فأضحت قادرة على مشاطرة بؤس الآخرين ولو من بعيد.

بعد حرب الغرب انتهت حرب اليابان. ولن نتحدّث، إلى حين، عن جيوش وأسلحة وتسلّح وتدمير وكوارث وخراب. ولكن، رغم ملكة النسيان العظيمة فينا، فإن بصمة الحرب الرهيبة ما تزال وقد دمغت ثلاثة أجيال بطابع الفوضى وقلبت مفهوم الخير والشرّ رأساً على عقب فولّدت انحرافاً جماعيّاً في الجنس البشريّ.

كيف ننسى صغار اليابانيّين القباح، العنيفين، العديمي التأثّر، الماضين بالآلاف إلى الموت، وقد اندمجوا بالقنابل أو تاهوا في المدى، ليحاربوا، بلا هوادة، في أوضاع مزرية لكي يُميتوا أو يموتوا. وكيف ننسى زهرة

الشعوب وشبابها وجمالها ومستقبلها وهذا الحشد من رجال وفتيان مُرقّمين يُلقون في الهوّة، مشوّهين وقد اضطّروا إلى محاربة قوى بدائيّة واجهتهم بها آسية القصوى والأدغال.

لكن فوق كلّ هذا جاءت القنبلة الذريّة وقد خرجت من جبهة مينرڤا كثمرة ناضجة من ثمار العقل فانتهت الحرب على اكتشافٍ جعل باطلاً كلّ اكتشاف من اكتشافات الماضي.

هل نحسبُ، مع هذا، أنّنا نواجه المستقبل بصفاء وغبطة ونُحيّي السلم، السلم العذب النيّر، مع موكب أوهامه ومفاتنه!

إن المحرّك العجيب في طائرات اليوم الذي هُلّل لاكتشافه قبل أربعين أو خمسين سنة، فكان ينقلنا بسرعة إلى أقاصي العالم قد شاخ فجأة ولن يطول زمانه. فمحرّك المستقبل قد يكون أقلّ حجماً من جوزة أو من قرنفلة، لكنّه يبعث قوّة كافية لكي تحمل الإنسان حتى النجوم.

لو عنينا بالسلم الطمأنينة والأمل والحظّ بسعادة تدوم وموسيقى لا تحدّ وحبّ لا يناله تهديد، فلا يخالنّ أحد أننا دخلنا عالم السلم. اللّهم، إلاّ إذا استدركنا فأكّدنا أن السلم لم يفارق قطّ من يهواه لأن «ملكوت الله في داخل نفوسنا» وهو يتحكّم بالسياسات والاختراعات والنُظم.

الإنسان والكواكب

١٧ آب ١٩٤٥

ينبغي، على ما يبدو، أن يُنسب إلى الشمس بعض الشطط الملحوظ الذي انساق وينساق الناس اليه. فبُقع الشمس تتنوّع حجماً وتتغيّر من عصر لآخر. وحين تتّسع تصبح الأشعّة المنظورة وغير المنظورة التي تجتاز أدمغتنا أشدّ فعالية واختراقاً. والكثير من أهوائنا وحماقاتنا هي، وجزء منها، نتيجة خلل في الطبيعة. والكثير من حركاتنا وأعمالنا يدلّ على انصياع لا واعٍ لقوى تُسيطر علينا.

وَسط هذه الظاهرات تبقى حريّتنا كاملة ولا شكّ. ولكن ما هي الحريّة حين تُرهقنا وطأة الحرّ، لا سيّما متى جابهتنا الشمس والكواكب بوسائل أشدّ سريّة.

ثمّة كائنات مجهريّة، متناهية في الصغر، تحرّك دَمنا حتى تثير فيه حُميّات لا تُحتمَل، ويكفي القليل منها ليستولي الهذيان علينا. والهذيانات الجماعيّة لا تذهل أكثر من سواها.

إلى أي مدى يحقّ لفنّ التنجيم أن يتدخّل في شؤوننا وإلى أي حدّ تتقدّم الكواكب في مسيرتها، لا في الفضاء وحسب، بل عبر كُنهنا؟

بعد سلسلة طويلة من الاكتشافات الباهرة انكشفت أمام العلم مهاوٍ جديدة جعلتنا لا نغادر الظلمات من باب أو من آخر إلاّ ونجدنا من جديدٍ على عتبة اللانهاية.

«ان الصمت الأبديّ في هذه الامداء اللامتناهية ليرعبني» (باسكال) .

بين كلّ عجائب العالم لسنا، نحن البشر، الأقل روعة وإدهاشاً . وقد تأكدنا ذلك منذ حين، فنحن نتقدّم جسدياً ببطء لا يُتصوّر فيما تتّسع معارفنا اتّساعاً جنونيّاً يبدو معه الإنسان وكأنه أحد المتحجّرات وسط اكتشافاته، لأنّه، بلحمه ودمه، ما زال كما كان قبل عشرة آلاف سنة .

إن زمن الحرب وزمن السلم بين البشر قد ينطبقان على مسيرة الكواكب . كما يجعل القمر التماوج مدّاً وجزراً وكما لدرجة الحرارة من تأثير على كلّ أهوائنا، ابتداء من أهواء الحبّ .

هكذا عظمة قَدَرنا تظهرُ وتتجلّى أكثر فأكثر فنكتشف أننا نتضامن مع أشياء بعيدة جداً عنا .

نحن نُخطئ كبشر، لكننا كملائكة نكتشف . ولسنا بشيء، كما قال باسكال، بالنسبة إلى اللانهاية، لكننا كل شيء بالنسبة للعدم .

ألا نرى من حيث لا ندري أن اللانهاية تستولي علينا بشكل أوثق؟

اليابان المنهزمة

١٨ آب ١٩٤٥

إن استسلام اليابان يقترن بمعاملات واحترازات خاصّة بالشرق الأقصى حيث لكلّ شيء طابعٌ مُهيب. في الهزيمة، كما في النصر، ثمّة تقاليد يجب أن تُحترم وطقوس أن تُتّبع ومراسم لا تتبدّل. ففي أكثر من حالة فرض اليابانيّون للتوقف عن القتال أن يَروا بأعينهم رسولاً يحملُ اليهم أمراً من الإمبراطور.

لهذا السبب علمنا أنه لا بدّ من مدّة تتراوح بين ستّة أيّام واثني عشر يوماً كي يتوقّف اطلاقُ النار في كلّ مكان. ففي الجزر البعيدة، وفي الصين ومنشورية، وفي نقاط عدّة استمرّ القتال. فلا الأمر الذي توجّهه الإذاعة ولا نداء من بعيد يحملان الجنديّ الياباني على قبول الحقيقة بصورة عمياء. فالهزيمةُ، بالنسبة لليابان، مُصيبة خفيّة، هي مؤامرة، هي تدبير منسوب إلى الشياطين، إلى قوى الشرّ حكاية غامضة لها علاقة بالسحر المؤذي يعجز هذا الشعب عن كشف سرّها.

كيف يُمكن للميكادو أن يتخلّى عنه أجداده وهو ابنُ الشمس، ابنُ الآلهة. إنه لنوعٌ من العجز السّلالي يُرهق بلدَ الشمس الشارقة.

وسط كلّ هذا يُوجّه إلى الأمبراطور تكريمٌ حارّ، حزين. **يُقدّم لهُ الشعبُ العزاءَ لأنّه ما استطاع أن يخدمه بشكل أفضل.**

يبدو أن كبار الحلفاء المنتصرين فهموا هذا الأمر. لذا لجأ القائد ماك

أرثور إلى إجراء يختلف عمّا رأيناه في الغرب. فقد أخذَ بالحسبان التعقيدات النفسانيّة في اليابان وطابع المأساة الروحيّ والاضطرابات التي تخالج أعماق نفس هذا الشعب وعقله.

كلّ ما قيل رسمياً في اليابان، منذ هزيمتها، يُبرز يأس اليابانيّين الجليل واعتزازاً غير معقول. ولئن استسلمت اليابان فلكي لا تزول من الوجود، لكي تنقذ الحضارة. والخطأ الذي ارتكبته فأدى إلى الهزيمة مردّه أنها ما استعدّت كما ينبغي للحرب، لكنها ستحسن العمل في المستقبل.

لقد برهنَ اليابانيّ، في جميع الطُرُق، عن احتقاره الموت. والموت ليس في أيّ بلد في العالم أقلّ أهميّة منه في اليابان. عبَره تستمّر الحياة. وإنه لأمر رائع، ولا شكّ، على الصعيد الروحيّ. ففي المواقف البربريّة التي تثير، في جوانبها الكثيرة، الاشمئزاز ذخرٌ من البطولة لا يُحدّ.

ان لسقوط اليابان عواقبُ جسيمة على عقليّة الجنس الأصفر، قد يؤدّي إلى يقظة مأساوية في آسية وإلى مجابهة ثوريّة بين التقليد والحقيقة. وهو لا يعني زوالاً معنوياً وسياسيّاً، حتى ولو وقتياً، بل يبعث من أشدّ الإحباط طاقات جامحة.

لقد برز في الشرق واقعٌ جديد. وإننا لنتوقّع ظاهرة اختمار قد لا يكون لها مثيل. ثمّة مغامرة هائلة بدأت بين آسية الشمالية، وهي سوفياتية، وبين الأمبراطوريّتين الصفراوين.

المال والحرّيات

٢٤ آب ١٩٤٥

عندما يخفّ تعلّق العالم بالمال يبدأ عهد فروسيّة جديد.

وعندما يقلّ شغف الناس بالإيرادات (وقد تضاءلت) ترتفع حرارة القلوب.

من الطبيعيّ أن نتعلّق تعلّقاً معقولاً بخيرات الأرض. فنحن لا نقلّل من حقّ الإنسان بالتمتّع بامتلاك بيت وحقل ولا من الحبّ الشرعيّ الهادئ الذي تولّده أشياء جميلة يمتلكها.

ما نحلم به هو أن يُعطى لكل بيته وحقله وأن يبذل كلٌّ من ذاته في هذا السبيل. فالحلم بالنسبة الينا جميعنا هو أن نحظى بنصيب، متقلّب ولا شكّ، من شمس، من طبيعة من فرح. هو الحلم بأن ينمو في منازلنا الميل إلى فنّ فرديّ، إلى شخصية مميّزة.

إذا كان الانتاج بالجملة قد ضاعف الخيرات فإنه قتل نزوة التخيّل. إنه، بالتأكيد، عمل ديمقراطيّ، لكنّه لم يُرق لأبناء أثينة، في عصرها الذهبيّ، ولا لعمّال النهضة الأوروبيّة. ذلك أن مبدأ سعر الكلفة قضى على العمل الصبور، على أهواء الفنّ وعلى الاكتشاف المجرّد من المصلحة، قضى بالنتيجة على الصنيع الفريد بنوعه.

إن مرض المال وشهوة التعلّق به شاعا منذ أقدم العصور. لكنّهما اتّخذا، منذ قرن، حجماً مفجعاً. فلكم رأينا، أكثر من أي وقت مضى،

شيوخاً مهيبين على حافة القبر يتمّسكون مستيئسين بحافظات نقودهم وحصص أسهمهم التجاريّة وقد استعبدتهم علامات الثروة هذه فيما ليست هي حيال الموت إلاّ كدسة أوراق ميّتة لا نور فيها.

طوال قرن سادت عملة الورق، وهي صورة وهميّة للذهب، عملة مزيّفة أشدّ ظلماً من العملة المعدنيّة، لأن الورق أسهل تداولاً وأقلّ وزناً.

لقد كشفت النزعات السياسيّة الراهنة عن رغبة تحرّر، ليس لأن التسالب لا معنى له، ولا لأن خراب البعض قد يعني رفاهة الآخرين، بل ما يسعى اليه العالم الماديّ، عبر نظريّات مُبهمة، هو حدوده الخاصّة، هو مقدار ما يُخصّ به الفرديّ العابر وما يحفظ للدائم وللعدد. فلئن كان التجريد الجماعيّ من الملكيّة يؤدي حتماً الى بؤس الجميع وكربتهم فالامتلاك الفرديّ، غير المُنظم، يؤدي الى قطيعة وتمزّق.

إن النظريات العظيمة لن تُنقذ العالم إنما يُنقذه الاعتدال والتجرّد، وكذلك الرغبة بالنظام والجمال في الذات ولدى الغير.

ألا نرى أن التربية والاعتدال والنزعة الروحيّة هي بعد الآن الكلّ بالكلّ وأن المال في هذا السياق لا يحتلّ وهو بيَد الفرد، حيال حضارة أصيلة، الاّ منزلة ضروريّة ولا ريب لكنّها ثانوية؟

يتوق الإنسان الى أن تشمل الحرّية بشكل معقول الملكيّة والخيار الحرّ. وكما لا يمكن أن يُخلط بين إنسان وآخر لأن لكلّ وجهه واسمه لذلك يجدرُ أن تشمل شخصيّتنا شمولاً حرّاً كلّ عناصر حياتنا.

مقارنات

٢٦ آب ١٩٤٥

هل سنرى الفرنسيّين والإنكليز يقرّرون معاً تعليم الانكليزيّة والفرنسيّة، إلزامياً، في كلّ من بلديهما؟ هذا ممكن بل هو، الى حدّ ما، شرط لراحتهم.

لا يمكن لفرنسة وانكلترة أن تكونا غريبتين إحداهما عن الأخرى بعد أن تقاربتا أكثر من أي زمن مضى. وهذا ظاهر من بيروت أكثر مما هو ظاهر من لندن ومن باريس. فلئن عزمت هاتان الدولتان على هذا الأمر فقد تسير كلّ اوروبة الغربيّة على خطاهما ومعها نصف العالم.

لو استذكر الإنكليز، أكثر بقليل، هديّة غليوم النورماندي وسلالة پلانتاجينه[١]. ولو استذكر الفرنسيّون عهد إليونورا[٢] لكانوا أنشأوا معاً إمبراطوريّة الغرب من أجل راحة الكون.

باستثناء أيّام الغزو كنّا نرى في فرنسة عدداً من الإنكليز أكبر من عدد الفرنسيّين في إنكلترة. ذلك أنّ الانكليز يهربون من ضباب بلادهم، فيما الفرنسيّون لا يسعون اليه. ولطالما ارتاد الإنكليز الشاطئ الفضّي، والشاطئ اللازوردي والشاطئ الزمرّدي، أيّام العزّ. وكان منهم آلاف من

١ . Plantagenêts: سلالة ملوك إنكلترة وكان رأسها هنري الثاني.

٢ . Eleonore: ملكة فرنسة بزواجها من لويس السابع ثم ملكة إنكلترة بزواجها من هنري بلانتاجينه، بعد الطلاق (١١٢٢-١٢٠٤).

مواطني نيس وپو، فضلاً عن مُدُن فرنسيّة أخرى.

لو تذكّرنا أن عدد الفرنسيين والإنكليز مع سكان همزة الوصل، بلاد البلجيك وهولندة يتجاوز المئة مليون لاستوقفنا التأمل. فهذه الشعوب الأربعة، أسياد بحر المانش، تكاد تملك العالم المُستعمر بكامله. فهل ستنتظر طويلاً لكي تنميه وتُدافع عن مجتمعه؟ إنها اذا انقسمت تعرّضت لأخطار جسيمة أما اذا اتّحدت شكّلت أوّل قوّة في الدنيا. وبين أميركة الميسورة المتساهلة والإتّحاد السوفياتي الجبّار الشبعان قد تثير، بعد الدمار الهائل، ازدهاراً جديداً وحضارة باهرة، في أعمال السلم.

إن الفرنسيّين الذين يتكلّمون الإنكليزيّة اليوم يشطرونها كما كان يفعل دو غكلان، والإنكليز يشوّهون الفرنسيّة كما في أزينكور. لكنّ الحقيقة الانسانيّة والسياسيّة لا بد ان تنتصر بالنهاية.

وسيكون هذا الأمر أسهل حين تزداد رومة المسيحية شموليّة، عبر الغرب، من دون أن تتعدّى على أحد، فتقوم أكثر فأكثر بدور المهدّئ وتوثّق الصلات بين الشعوب.

في ساعة يأس، سنة ١٩٤٠، تمنّى تشرشل لو يرى فرنسة وإنكلترة توحّدان مصيرهما. ولا بد أن تتحقّق هذه الأمنية عبر مراحل لا مفرّ منها.

مبادلات وهبات

٢٨ آب ١٩٤٥

بعد أن تبادل الناس القنابل والقذائف أرادوا من جديد أن يتبادلوا البضائع. حكاية قديمة تعود. يتحاربون لأجل فتح سوق أو إقفاله. ويرهقون إنساناً ليجعلوا منه زبوناً بانتظار إرهاق هذا الزبون الذي قد يبحث عن تاجر آخر. هذا هو ناموس الحاجة والكسب، ناموس الإخاء والمدنيّة.

لكنها هي أيضاً مسألة حياة وموت. فإن لم أبعِ أدوات مثلاً لن أستطيع شراء أطعمة. وإن لم أجد شارياً تعذّر عليّ الحصول على غذاء. أسواق، مبادلات، توزيع. ها هو قاموس انساني يخلف اللغة اللاإنسانية في زمن الدمار والحقد.

ان پوفي دو شاڤان، وكان رسّاماً حسّاساً، أظهر بشكل مُستحبّ أعمال السلم في لوحاته، فإذا هي تتجلّى في تناغم ونور في عصر ذهبيّ خياليّ. ونرى من خلالها بشراً شبه أبطال أو أنصاف آلهة.

لكنّ الحقيقة هي غير هذا. منها تفوحُ رائحةُ الفحم والنفط والدهن وعفونةُ العرق.

فما أن تخلّى الناس عن أسلحتهم، بعد الحرب، حتى تهافتوا على المصانع، ونزلوا الى المناجم سعياً وراء عوامل السعادة. ثم كان لا بدّ من البيع.

التجارة شيء عظيم شرطَ أن لا تُمارس على دويّ المدفع. فإذا كانت

الأشياء المادّية التي نتبادلها تقتضي سياسة حكيمة وعناية خاصة فإن مبادلات أخرى تسمو عليها، هي مبادلات الفكر والعلم والفنّ، مبادلات المحبة التي لا تستدعي، بالمقابل، الشكران والحب.

قانون «الإعارة والتأجير» صار عديم المفعول، حسبما يقال وهو أمر مؤسفٌ. ومع هذا لا يحقّ لأحد أن يحتجّ. فقد حقّقت الولايات المتّحدة، على صعيد التعاون، أمراً عظيماً، لكنّ قانون الإعارة والتأجير كان من شأنه النبيل أن ينافي الطبيعة من الناحية التجارية. كان يعني أن بلداً كبيراً يهبُ مما يزيد عن حاجته أو يسمح باستعمال هذا الزائد. وهو تقدّم رائع في تاريخ التضامن الانسانيّ.

قد يكون قانون «الإعارة والتأجير» جميلاً جداً. في زمن السلم. والأميركيّون ذوو القلوب الكبيرة سيعودون اليه وقد يأتي معهم آخرون.

ويتبادر الى ذهننا هذا السؤال: لماذا لا تضع كلّ البلدان القادرة ما يفيض عن حاجاتها بتصرّف مكتب دوليّ ملائم يتولّى توزيعها بعدل.

ولكن دعنا من الأحلام! فلكي نعيش لا بدّ من التبادل. واللبنانيّون الذين يبيعون خدمات، بنوع خاصّ، يعرفون ذلك أكثر من سواهم. فمخزونهم هو أوّلاً في أدمغتهم. وهم يطالبون بإلغاء الحواجز والعراقيل، ويطالبون بهذا الحقّ، وهم على صواب.

ذلك أن بالتجارة أيضاً تُنشر الحضارة وتُصنع السعادة.

هروب الوقت

١٣ أيلول ١٩٤٥

لو استطعت، رغم برغسون والعمر، لجعلت الوقت يبدو لي أطول. ورغم ان مضي السنين يشعرني بمرور الوقت ومع صفاء الذهن الذي تولّده الحكمة حيال ذواتنا سأجهد لكي أجد وقتاً لا ينتهي في جوّ العزلة والتأمّل، تحت شمس الصيف، والموسيقى الطبيعيّة التي يعزفها الفجر عند طرف الغاب قبالة البحر، بعيداً، قدر المستطاع، عن كلّ ما ينقضي.

يطيبُ لنا، بعض الأيام، على الصعيد الأرضيّ، أن نحسب أننا خالدون.

فبعد أن نعبر الموت الى الخلود هل يعود يهمّنا الزمان والمكان؟

الحياة جميلة لو أنها اقتصرت على عواملها الأولى. هي، بنظر العيون الصافية، تسير ببطء رائع وتطول. وتتجاوز حدود فسادنا ورغباتنا وتتفلّت كليّاً من القيود والتخوم.

ولكن يبدو أننا صرنا لا نعرف أن نعيش. تتملكنا ألف خدعة، تثيرنا شؤون بدون جدوى. نقلق صباحَ مساء. نشعر باضطهاد حتى في أحلامنا. نحوّل النور حزناً، نحجب عنا السرور والهناء.

أي شيطان يدفعنا الى أن نُفسد كلّ ما في ملذاتنا لامتلاك شيء تافه!

لن تموت نزعة التملّك الاّ عند الذين يتعلّقون بالروح فعادوا لا يتعشّقون الاّ المعرفة.

إن ما كان يبدو لي انتظاراً ورتابة في طفولتي وددته اليوم غنىً. وأقصد بهذا السكون والسلام اللذين يتيحان الإصغاء الدائم الى ضجّة الأمواج، الى غناء صرّار الليل، يتيحان النوم عشرين مرّة فوق كتاب مفتوح والتنعّم عشرين مرّة بروعة صباح صيف وأنا غارق في نشوة الجسد والروح وقد استحال الزمان حلماً.

إن لفي مظاهر كسَلنا التي لا تُقاس، كما في غليان الغرب المفرط، بعض جنون.

بيد أن الزمان صار يهرب بسرعة لا تكاد تترك لنا سبيلاً لسماع صفير السديميّات وهي تتهاوى - الله أعلم أين - الواحدة بعد الأخرى باتّجاه اللانهاية.

تأمّلات حول السلم

٢٨ أيلول ١٩٤٥

سواء أكان السلم دوليّاً أم اجتماعيّاً، فإننا نُدرك أكثر فأكثر إنه ليس من هذا العالم. فالأهواء الجامحة أبعد من أن تخمد. حتى لو تصوّرنا الأرض كلّها مُتّحدة ويحكمها ذات الرؤساء، لا بدّ أن تمرّ بخيالنا حرب داخلية يثيرها تعارض مطامح فرديّة، نزاع ميتافيزيقيّات، أو صراع عرقيّ.

هل السلم العزيز، الفريد، النفيس، سيظلّ هارباً منّا؟ لو أننا سعينا اليه، بداخلنا، لخفّ اضطرابنا، لأن لنا من الصفاء ما نستحقّ، والحكمة تُزرع كما تُزرع البساتين والحدائق والأزهار.

الأخلاق تعلو كل السياسات، الأخلاق الأبيّة، الكريمة. وهي أقلّ جفافاً مما يظنّ البعض وتعطي كلاً حقّه في جوّ من الحبّ. لكنّ المناقبيّة لم تفرض نفسها بعد على الأمم.

وضع الروائيّون جانباً تعاليم القديس بولس والمنطق واسترسلوا طويلاً في الحلم والوهم، فأحلّوا العنف و«الحق بالحبّ» محلّ العمل الحرّ في سبيل الخبز اليوميّ الذي هو وحده يولّد الحبّ. وتمادوا في تناسي الموجبات حتى جعلوا الحقوق جائرة. فكانت النتيجة أن العمل ذاته، العمل الانسانيّ الشريف ذُلّ فانحطّ تحت شعار القوّة.

إن أخلاق الأمم تنبثق عن ناموس الطبيعة. وهي تضع المحبّة فوق العنف وتجعل من المساواة المُبهمة، الشرسة، حماقة. ولا غرو، فالمساواة الصارمة

- ولا دخل لنا - ليست في الطبيعة. فالذكاء والموهبة والجمال والقوّة الجسديّة والمهارة في الحرف والفنون ما وُزّعت كلها بالتساوي بين البشر. وينبغي ان يعلّم الدين وَالأخلاقيّات أن النفوس تتساوى وأن أطهرها هي أجملها وأن أرفعها هي ما يسمو بها الألم.

المساواة المُطلقة في هذا العالم قد تعني التساوي في أخفض مستوى. ولن يكون هذا الاّ على حساب الجماهير عينها. إنها أقسى وسيلة لحُرمان الشعب الطيّب من حظوظ الارتقاء، ولإبعاد عامّة الشعب عن الإفادة من المنافع المدنيّة التي وحدَها النُخب تستطيع أن تقوم بها.

لّما كانت هذه الأمور تتعرّض للرفض أكثر فأكثر فإن السلم لن يأتي. ونقصد طبعاً السلم النسبيّ الذي هو وحده ممكن. لأن السلم التامّ لن يكون في عالم يسوده الغيظ والحسد والشهوات الكاسحة والحقد والندم والموت.

فوق كلّ العلوم يتراءى لنا عهد الأخلاق، أي النزاهة ضمن النظام. ولن يكون هذا إلاّ حبّاً بالسلام.

خريف

٢ تشرين الأوّل ١٩٤٥

خريف! وعودةُ ريح الشرق والأوراق الميتة. حتى الأمس القريب بدا لنا أنّ بعد ربيع النصر وصيفه لا يمكن لأي خريف أن يُحزن عيوننا. لكنّه اتّضح لنا اليوم أن المأساة الطويلة ما كانت الاّ مظهراً إنسانياً امتدّ على فصلين من الكآبة والموت.

ها الخريف والشتاء قد عادا من جديد وفيّين لنواميس الطبيعة التي شاءت أن يخمد كل شيء ثم يظهر من جديد: النبات، الحيوانات، البشر والأمم.

من خطأ التربية أن شؤون الحياة والنواميس العميقة ووجوهها لا تسترعي اهتماماً أشدّ تواصلاً، ولا تفرض عودة الى الذات ونوعاً من المهادنة بين النزاعات الاجتماعية والأهواء.

ان كلّ شيء يتردّى. وكلّ شيء يموت. وما بدا لنا حتى الآن ما له هشاشة النواميس البشرية التي حتى لو كنا لا نطيعها نضفي عليها طابعاً أبدياً مقدّساً. فالشعوب تتصارع لأن مُجدّداً قد وُلد وأعلن عن بنود جديدة للقانون وعن سياسة جديدة. ويستمرّ هذا الإنسان المصطفى بطلاً او إلهاً، يكشف عن حقيقته ويُذيعها على الجماهير فيزداد أنصاره ازدياداً هائلاً ويهزّ الأرض كلّها هزّاً. ربيعه ازدهار رائع وصيفه شمس. لكن خريفه لا بدّ آت وهو لا يرحم العقائد كما البشر، فتجفّ الإيديولوجيات، كما تجفّ

النبتات، وتصفرّ الأحلام مع الأعشاب، ولا تعود حماقاتنا تصلح الاّ لوقد نار شتاء لا تُدفئنا الاّ لأنها تكردُس رماداً.

وحدها الحقيقة تصمد وتستمرّ حيّة، حقيقة واحدة هي تلك التي تسود كلّ شيء، تشعّ فوق رؤوسنا، تُذلّ أمجادنا وتحمل «عظماء» الأمس وحكمتهم المزيّفة على الزوال الأبديّ.

«موسوليني دائماً على حق»، وهتلر أيضاً وآخرون غيرهما. يا للمهزلة!

الخريف جاء، كما الحلم، جاء ليحطّم هذا العنفوان، ليُزيل هذه الأوهام. وكما تتناثر الأوراق في الريح لن يبقى من أمجاد الأمس الاّ بعض وبال وغبار.

هوذا الخريف مدرسة الفلاسفة والسياسيّين العليا، مدرسة التواضع والتجرّد والرحمة.

من سرب فرّي إلى بتهوفن

٧ تشرين الأوّل ١٩٤٥

من وراء البحار مرّ سرب من الفرّي، ذاك المساء، فوق شواطئنا. وكان التعبُ قد أرهق بعض الطيور فما استطاعت أن تواصل مسيرتها، فدخلت منازلنا على الجبل. واذا فرقة من الحَرَس بجوارنا تتلذّذ بأكلها. الاّ أن فرّياً، وديعَ العينين، وقع بين يدي طفل فاستحقّ حبّه. وقضى الطائرُ ليله في قفص ليُطلق سراحه عند شروق الشمس. وعند الفجر مضى مستشيطاً باتّجاه الشرق.

هكذا تنتقل الطيور من أرض الى أرض، من عالم الى آخر، معرّضة لتهديد شهواتنا وشراكنا. فالروابطُ الوثيقة التي لا يعرف الناس أن يقيموها بينهم تتمثّل دائماً في هجرة الطيور. الحُبارى النبيلة القويّة واللقلاق البطيء الطيران والفرّي الجميل السمين تمضي كلّها بدون جواز سفر من بلد الى بلد هاربةً من قساوة الشتاء، ساعيةً الى دفء الربيع. والإنسان، مع هذا، ما زال يُناصب أخاه الانسان العداء ويحرمه طيبَ الإقامة حيث تُكرم الضيافة. فجأة ترتفع الحواجز بوجهه وتوصدُ الأبواب.

لو كان لنا انتظام طيور السماء ولو نال الحبّ الخلاّق عندنا حقوقه، لكانت شعوب بكاملها تمضي مداورة، بعضها الى بعض، وتنعم بمسكن مع قبلة سلام فتُنوِّر المنازل بحضور الغريب، بل الضيف الكريم. لكنّ مداخلنا مقفلة، ويا للأسف، وعلى نوافذنا مغالق.

ما زلتُ أسمع، من بعيد، صرخة الفرّي الذي حُرّر ذلك الصباح وأنا غارق بين الوزّال في الكروم الشاحبة في شهر تشرين. فقد نجا هذا الطائر من الموت لينتشي بعدُ برحابة الفضاء، بأنشودة الفرح. والصرخة عينها التي أطلقها هذا الصوت الذي سمعته عند الفجر وقد استحال موسيقى خالدة، بحثتُ عنه فوجدته مغموراً بالحبّ في نغميّات بتهوڤن الرائعة.

بدون شغف ولا بغض

١٢ تشرين الأوّل ١٩٤٥

إن العدالة، عاديّة كانت أم غير عاديّة، طبيعيّة أم ثوريّة، يجبُ أن تكون عدالة في كلّ مكان. ففي فرنسة جرت محاكمات سياسيّة تُثير الاستغراب. فأياً يكن الذنبُ، حقيقياً أم مفترضاً، وأياً يكن هول الجريمة لا بُدّ، في كلّ حين، أن يتاح للحقيقة أن تظهر في وَضَح النهار، بل أن تسطع. ها كسلنغ[1] يُحاكم في النروج. هو يدافع عن نفسه. يُحكم عليه فيستأنف، ويتمتّع بحقّ الطعن ويجدّد دفاعه. فالقضاء النروجيّ، الذي قد يحكم غداً باعدامه، نظر الى الانسان فيه ببرودة الحق والقانون ومارسَ بصفاء لامتناه إجراءاته والقرارات. أمّا في باريس، فقد رأينا، هذه الأيّام، قضاة ومُحلّفِيّن يخرجون على التحفّظ البدائي فيتّخذون موقفاً منذ البداية ويُعلنون تحيّزهم ويسيئون معاملة أناس تعرّضت رؤوسهم للموت لكنّهم ما فقدوا الصواب. رأيناهم بمداخلاتهم المتحزّبة يُربكون متّهمين حُكم عليهم سلفاً وهم على قيد شعرة من المقصلة.

ثمّة وجوه شَبَه كثيرة بين القُضاة الذين حاكموا ماري أنطوانيت وقُضاة اليوم. فالنزعة الشعبيّة المتطرّفة بلغت في شدّة الغيظ حدّ الإساءة الى الكائن الأسمى فتخلّت عن إنسانيتها.

١ . Quisling : رئيس حكومة النروج، تواطأ مع الألمان فأعدم.

ليس لنا ما نقوله، من حيث الأساس، بل حسبنا أن نقول إن العدالة، في هذا القرن، تصدم وتثير وتُزعج، وإن الشيوخ الأجلاّء الساخطين، المتجلببين بالرداء الأحمر، إذ ينادون العدالة الكاملة بصوت «الرحومات»[٢] يُبعدون عنهم، بذات الوقت، محبة سقراط وحكمة أفلاطون.

في هذه المحاكمات عمل المحامون ما وسعهم. لكنّ من الواضح أن أشهر المحامين الفرنسيّين لم يُقرّوا تسرّع القضاء المُبلبل.

أمّا شهود الإثبات والدفاع فقد عبّروا عن تأييدهم للحق بأن لاذوا بالصمت بسبب «الأوضاع غير المألوفة» التي جرت فيها المحاكمات بدون معارضين.

ليس في كلامنا هذا ما يدعو الى سوء ظنّ بالأحكام كيفما صدرت، إنّما يشرّف القضاء الفرنسيّ أن يميّز بين تاريخه العريق وبين طوارئ تجرحه أحياناً.

لا نخال أحداً يردّد عبارة برناف[٣] «هل الدم الذي أُريق كان إذن نقياً بهذا القدر!». هذه العبارة التي قال عنها المحامي الشهير الذي دافع، قبل ثلاثين سنة، عن ذكرى غاستون كالمت[٤]، إنّها وصمت بالعار قائلها.

إن كسلنغ ذهب في تصرّفه الى أبعد من جميع هؤلاء الذين تُحاكمهم فرنسة منذ سنة. ومع هذا تمتّع بحقّ الدفاع واستطاع ويستطيع بعدُ أن يرفع صوته ويعلّل أسباب فعلته بدون أن يُهان أو يطرد.

---

٢. Eumenides: لفظة يونانية تعني النساء المتميّزات بالرحمة والعطف.
٣. Barnave: محام فرنسي ونائب وخطيب.
٤. Gaston Calmette: صحفي فرنسي قتل على أثر حملة صحفيّة.

الآلهة الساقطون

٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٥

لقد شكّلت محاكمات نورمبرغ حَدَثاً بالغ الأهميّة على صعيد العدالة الإنسانيّة. فمثول زعماء ألمانية الأمس أمام قضائهم إنما هو فصل من فصول دانته ومشهد من مشاهد شكسبير وڤاغنر. وسيجعل كلٌّ من كبار المسرحيّين، على التتالي، منها «غسق الآلهة»[١] على طريقته.

عشرون رجلاً تمتّعوا، باوقات مختلفة، بقدرة هائلة على الخير أو الشر. يهبطون من مواقع حسبوها فوق إنسانية ويُحاسبون على أعمالهم وسط تراكم الدمار. هم يسيطرون على انفعالاتهم، في تلك الأماكن الظلماء حيث جمعتهم المصيبة، وكأنهم قد أصبحوا في الجحيم.

إن مأساة أوديب، مأساة القدر، لا بدّ أن تُثار بصورة طبيعيّة حول غورنغ وروبنتروپ[٢] والآخرين. لكنّ معضلة الشرّ تُطرح بشكل مختلف بصدد هؤلاء الرجال ومسؤولياتهم.

في الظاهر، ان جميع الزعماء الألمان الذين يُحاكمون سلّموا صراحةً أو ضمناً بأنهم اعتبروا أقصى الظلم وسيلة حكم وغزو، واحتقارَ الألم لدى الغير موقفاً بطولياً جديراً بعرق متفوّق. والغاية، بنظرهم، برّرت كل

١. «Le Crépuscule des dieux»: رائعة ڤاغنر الموسيقية.

٢. Goering, Ribbentrop: زعيمان ألمانيان في الحرب الكبرى الثاني.

وسيلة بدون قيد او تحفّظ.

هؤلاء الرجال يتخبّطون الآن بين الكابوس والواقع، ولعلّهم يتساءلون هل استولى الدوار عليهم أم هم يحلمون..

محاكمات نورمبرغ هي، بالنسبة للانسانية قاطبة، فعلٌ يُعيد الاعتبار الى الحقّ والعدالة. ففي حالات كهذه، طوال التاريخ، كان لمصلحة الدولة العليا وحدها أن تُبرئ أو تُعدم. والآن، بمنأى عن الحذاقات القضائية، وفي عودة حاسمة الى الحق الطبيعيّ، يُبذل جهد لتحديد حدود الشر الذي تفرضه الكبرياء.

بعد محاكمات نورمبرغ، نتمنى أن لا يكون «قتل شعب» مجرّد «مسألة فيها نظر»[٣].

٣. إشارة الى قول لجبران خليل جبران.

أوراق ميتة

٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٥

هل أخيراً جاء الشتاء بعد تباطؤ طويل، بعد مغالاة بارزة من الطبيعة! وللطبيعة أيضاً أن تسترسل في نزواتها، أن تخرق نواميسها، أن تنساها. هل باطلاً ننتظر الخطر بعد ريح الأمس التي عصفت بأوراق الشجر الصفراء. إننا بانتظار نجدة من الطراءة الضروريّة لحاجاتنا الروحيّة.

يصعبُ التأمّل الجديّ حول الموت والحياة بمنأى عن علاقتهما بالطبيعة، بدون السماء الرماديّة التي تُعقّل الأفكار، بدون الغيوم التي تكوّن سقفاً ملائماً لتهوّرنا وهياجنا.

وسطَ مشاريعنا المشوّشة، المحفوفة بالمخاطر، وسطَ أحلامنا المختلفة المملوءة بالتجارب، يزورنا الموت (موت الأوراق وموت البشر).. فإن لم نُعر مثائل الموت اهتماماً ونحن في ذروة النور، في عزّ الصيف وقد بهرتنا الحياة، فإننا مع المطر ورتابة سقسقته، مع الألوان الملطّفة في الأفق والسماء، لا بدّ أن يستعيد التأمّل حقّه فيفرض ذاته على أعصابنا، على تهيّجنا، كما تفرضُ الحاجة اليوميّة علينا النوم. حينذاك نُرخي بهدوء الحبال الزمنيّة التي نتعلّق بها للقيام ببهلوانيات تافهة فنتساقط دفعة واحدة في اللانهاية.

وددنا لو استطعنا هذا الصباح أن نوجه تضرّعاً الى المطر. فنحنُ نتوقّع منه فعل محبّة، وتبريد جفافنا، ودعوة متجدّدة الى الحياة أمام تلّة الأوراق

الميتة المكردسة عند عتبة بيتنا.

من دون الأمطار المرجوة نرانا كمنفيّين في بلادنا، وحتى في منازلنا.

«أندروماك إني افكّر بك» كما أفكّر بذلك الأوزّ الذي نادى الصاعقة وهو على طريق جافّ في المدينة الكبرى[١].

لا يُحتملُ الموت الا مع عطف الطبيعة والدلائل المحسوسة على رحمة السماء.

هل كانون الأوّل آتٍ بدون ذلك البلسم وتلك العذوبة؟

الأزمنة الرؤيويّة

٢ كانون الأوّل ١٩٤٥

بعد الاكتشافات العبقريّة والتجارب المفجّعة لعلّ العالم ينعم بزمن اعتدال ونوم مريح. لكن هذا الزمن لن يكون زمننا، لأن الاحتقان الفكريّ بلغ ذروته وتتوقع الانسانيّة أن تعجن بعدُ عجناً أعمق. فهل يقال إن هذا سيكون لسعادتها؟ في الواقع تهربُ السعادة منّا بسرعة أدوات الدمار التي نخترعها، وهي تتفتّق كما نفتّق الذرّة.

ان اختلال التوازن يزداد بين وسائلنا الجسدية ووسائلنا الذهنيّة. وبقدر ما تتوتّر الأفكار توشك الأدمغة على الانفجار.

في أيّامنا هذه، يبدو ابن القفر، وهو في عزلته، أقلّ تعاسة من ساكن مُدن النور. وذلك لأن تقدّم علم الاجتماع يُصعّد الحسد والحقد، بدل أن يسمو بالحب سمواً مُشرقاً كما ينبغي أن يكون.

لئن تناولنا هذا الموضوع فلكي نؤثّر في المشاعر تأثيراً مباشراً ونخترق حتى أعماق الضمائر. ألسنا نرى أنّنا، بحجة المساواة نُضاعف الهدم؟

في وصف جنازة ڤيكتور هوغو كتبَ ليون دوده: «الموت بدون الكنيسة يخلو من الجلال» ويجب أن يضاف الى هذا الكلام: «وكذلك الحياة». فأهواء الإنسان بلغت من الجموح حداً صارت معه الآداب (والرياضيّات) تعجز عن تهدئتها. ولا سبيل بعدُ لإنقاذ العالم إلاّ الاتّصال اليوميّ بالروحيّ واللامتناهي.

هل من يقول لنا في أي مدرسة متوحشّة دامية يُريدون جعل البشر؟ ومتى ينقطع الغرب عن تعليم الحماقات ونشرها؟

في أجمل بلدان العالم يتألم الناس في نفوسهم، وفي أراضي البحبوحة يموتون جوعاً، وحيث عاش كبار الشعراء والموسيقيين يسود القبح واليأس، ونرى حول فلاسفة هذا العصر أنقاضاً هائلة.

هل هذا كلّه الاّ إفلاسٌ طنّان وسلسلة أوهام وأخطاء لا تُحصى حلقاتها؟ هل هذا، بالنهاية، الاّ صورة عجزنا بعينه حين ندّعي التعاظم ضدّ الله وبدونه؟

يا لها من تعاسة! فلنوفّر، على الأقلّ، هذه الفوضى عن شواطئنا الجميلة! فيا أيّها الحكماء أنتم تعلمون أن الحياة لا تقتصر على الكساء والطعام والشراب. يا أيّها الزاهدون الودعاء في هذه الأراضي المباركة لا تتعرّضوا للوقوع في الشراك الخادعة!

للغرب مطامح وأطَماع وثروات أكثر ممّا لنا، لكن علمه النفسيّ أخفق بالنّسبة إلينا، لأننا، هنا، نعرف الإنسان أفضل مما يعرفه هو، نعرفه بحدوده وبؤسه وأحلامه منذ بداية العالم.

بيد أن هذا الانسان ما زال مجهولاً لدى أوروبة، ما زال تجسيداً مغلقاً لحبّ الذات والكبرياء.

سياسة هذا الزمن

١٢ كانون الأوّل ١٩٤٥

لا نقصد هنا تدبيج الكلام حول المصاعب السياسيّة الراهنة بل مواجهة الأمور كما هي. فسواء انتقينا عباراتنا أم استعنّا بلغة الإعلام اليوميّ، الثقيلة إلى حدّ ما، فإن الوقائع تبقى قائمة مع ما تنطوي عليه من أخطار وتهديدات، مع كلّ ما تثيره من هيجان وهزّات لدى الطبقات الدُّنيا. ومن الواضح ان وجهات النظر المتوافقة عند «الكبار» أصبحت نادرة، فيما الخلافات بينهم تزداد.

هل، لعمري، في عمق القضايا السياسيّة الراهنة معضلة لها طبيعة العناصر البسيطة في الكيمياء التي لا يعاد تركيبها ولن تتغلّب عليها، لا سمح الله، إلاّ الطاقة الذرّية المتفتّقة.

ها من جديد قوى العالم تتواجه مستنفَرَةً ونحن لا نجهل من يُنظّمها ويوجّهها. فكلّ معسكر يحاول أن يفرض على المعمور كله فكرة معيّنة. ويتعذّر بالتالي فصل الحكم في أمّة ما عن فلسفتها.

وفق مذاهبنا الفلسفية نسير وراء هذه الراية، أو تلك، ونودّ بالإكراه أن نفرض على المعسكر الآخر أن يفكّر كما نفكّر نحن.

بالأمس القريب كانت الشعوب ترضى بالاستشهاد في سبيل أمرائها. أمّا اليوم فهي تذهب الى المسلخ في سبيل الفلاسفة، وليس لها حتى عزاء الموت كرمى لعيني أميرة حسناء، أو حفاظاً على تقاليد موسومة بشعائر

الدولة .

الآن ينبغي الموت من أجل أهل السفسطة وأهل البلاغة الخطابيّة ، وعلى البشريّة أن تتحمّل بغباء أعباء التجارب الضارية والباطلة .

تلك هي مأساة هذا العصر مع انعكاساتها المنظورة حتى في أبعد الأصقاع .

عن طريق أسماء مُستعارة ووراء أشخاص لا شأن لهم يلعب أسياد المذاهب الشائعة لعبتهم وهي لعبة رهيبة قد تقودنا إلى هاوية أعمق . وحسبنا ، لكي ندرك هذا الأمر ، أن نعود إلى الخريطة ونهتدي إلى الأماكن التي تتعقّد فيها المصاعب وتتشابك ، أن نصغي إلى الصراخ المتصاعد من المسيرات والعواصم .

مع هذا ، وسائل الوئام حاضرة . ويكفي ألاّ نكون فقدنا كلّ الصواب لكي نلجأ إليها .

مصيبتنا هي أننا ، خارج نطاق القوّة ، عدنا لا نرى شيئاً يوفّر لنا ضمانة كافية بوجه المرامي الخبيثة والنيّات السيّئة .

ميلاد ١٩٤٥

ميلاد ١٩٤٥

هل صحيح أن القتال توقّف؟ أم هي مجرّد ظواهر؟!

يا ما أشدّ ظلمة هذه الأيّام! ...

ما توقّف القتال إلا بعد استعمال جهنّمي للقنبلة الذرّية. وليست إرادة البشر هي التي وضعت للمأساة حدّاً، ولا حسراتهم ونداماتهم، بل الخوف من المادّة المدمّرة وما شابهها. والخوف من فواجع أفظع من تلك التي وردت في رؤيا يوحنا حول نهاية العالم.

كان بإمكان الأمم أن تعقد سلماً أفضل لو اتّخذت لها من الميلاد شعاراً! لو حُدّثت أكثر عن ولادة يسوع ولو عني لها الفداء ما يعنيه حقّاً، أي العطاء الأوحد والسلام الداخلي.

أسوأ ما في الأمر أن يفرغ الميلاد من جوهره ليصبح عيداً وثنيّاً ولا نعود ننتظره إلاّ للمظاهر التقليديّة المؤثّرة التي تجري حول مغارة من الثلج ليلاً...

ما زال الميلاد هذه السنة، بالنسبة لأوروبّة، يحمل طابع مذبحة الأبرياء، رغم كلّ الجهود المبذولة. ولا غرو فالكنائس خربة والمسيحيّة مدمّرة. واليوم، كما بالأمس، يفكّر الناس بموتاهم أكثر ممّا يفكّرون بالأحياء، ولا ينظرون إلى الحياة إلاّ وهم يحبسون دموعهم.

هل نحدّث باطلاً، كالعادة، ذوي الإرادة الحسنة والمغفرة لنقول لهم: من اتّفق لنا أن أبغضناهم لا بدّ أن نفكّر بأولادهم. لأنّ كل غضب يجب أن

يزول أمام المهود وأمام أنين الأمّهات .
رحماك يا إلهي إمنحنا سلامك!

حضارة

١٨ كانون الثاني ١٩٤٦

من أفجع ما في التاريخ المعاصر هذا التهجير للسكّان (وتلك المبادلة) وكثيراً ما أجازتهما الحروب بنتيجتها، سعيدة كانت أم تعيسة، وأحلّتهما شرعياً.

إن أناساً بالملايين يسحبون من ديارهم كالماشية الحقيرة أو كالجوامد، يفصلون عن أجوائهم، يبعدون عن مقابرهم، يُلقى بهم من حدود إلى حدود بوحشيّة تفوق وحشيّة البرابرة.

ما همّ أن يكون الإنسان قد وُلد في مكان ما وعاش فيه ورأى أهله يموتون فيه وأن يكون متعلّقاً بسمائه ومناظره كلّ التعلّق، لأن مصلحة الدولة العليا ومشيئة السياسة ومفهوماً خاصاً للحياة الاجتماعيّة جميعها قضت بالتخلّي عن كل شيء: الحقل والسماء، والبيت والأشجار، عن كلّ ما يكوّن سعادة الدنيا الشاحبة العابرة وعن كل عزائنا عن أننا بائسون وصائرون إلى الموت.

إن في عصرنا لقسوة راعبة. ولا لوم على ما يجري منذ نهاية الحرب لأن هول المغامرة سوّغ الانتقام، أقام شرعة السنّ بالسنّ والعين بالعين، حلّل القيام بأعمال مفجعة اعتُبرت تصحيح أخطاء. ولا ريب أن الألمان كانوا هم البادئين. ولا ريب أن اليابانيين تبعوهم. ولكن لا ريب أيضاً بأن أكثر من مئة ألف يوناني وغيرهم اضطرّوا، بالأمس، أن ينزحوا عن تركية بعد أن طردهم الجند المسلّح والسيف في خصورهم. وشوهد هذا الهول

عينه في اليونان وفي غير مكان من العالم. بيد أن تعداد المرارات الماضية لا يبرّر مطلقاً ما يجري الآن.

ما يمارسه العالم اليوم، بلا خجل، إنّما هو شكل جديد من أشكال الاستعباد. فالاختراعات المشؤومة التي جعلت من القرن العشرين قرناً جديداً للحديد والنار هل نقرأ عنه في الصحف بلا انقباض ولا تعجّب؟

يا ما أطول سلسلة البؤس في أيّامنا، بدءًا من أواسط أوروبة حتى حدود سيبيرية البحريّة. وما أكثر التهجير والآلام والابتهالات والدموع!

ليست العاطفة وحدها هي التي تحملنا على الكتابة في هذا الموضوع اللاإنساني، بل العقل أيضاً. فحين يُقترف العنف، على أنواعه، ويتجدّد، وحين يمزّق شمل الناس والعائلات باسم عقيدة سياسيّة، باسم قوميّة متصلّبة، باسم الدين والعرق، وحين تُنزع من الناس قلوبهم وممتلكاتهم ويُلقى بهم في جحيم الأراضي الملغومة، فهل نحسب أن قصّة هابيل وقايين لن نراها تتكرّر؟

القمر والرادار

٢٧ كانون الثاني ١٩٤٦

لعلّكم قرأتم جيّداً هذا الخبر: قام الأميركيّون باتّصالات بالقمر، هذا الشخص الصامت الذي سبقهم إليه الشعراء منذ زمن بعيد.

«أيّها القمر الذي عبده آباؤنا بخفر ...».

بين بودلير ورفيق ليالينا نشأت صداقة متينة وقد وجّه إليه الشاعر كلمات تعبّر عن شعور أخويّ منها:

سنتياي[1] القديمة، مصباح مغاورنا.

لكنّ الأميركيّين، باتّصالهم هذا، قد يسيئون قليلاً إلى تلك العلاقة.

إن القمر، وهو لا يبالي بما يجري على أرضنا، تلقّى صدمة اكتشافاتهم. ولا بدّ أن تثير فيه اضطراباً وتشويشاً. تلك هي حالنا، بحجّة خلق سعادة ما نشوّه بأيدينا ما منحتنا إيّاه الطبيعة.

يا لحلاوة الليالي المقمرة! يا سوناتة «في ضوء القمر».

هذا المساء يحلم القمر بتكاسل الشعر

ضوء القمر ينساب في منحدرات السقوف الزرقاء

ما مصير هذه الموسيقى وهذا الشعر؟

ها أن القمر أصابه الأميركيّون وقد يقيمون حظراً عليه فلا يبقى لنا إلاّ

---

١. Cynthie: الجبل الذي ولد فيه أبولون، إله الموسيقى والشعر.

ضوء قمر معلّب.

المغامرة الجديدة وقعت. والشعراء والحالمون وجميع من نقول عنهم «انهم في القمر» سيمسون بدون منزل، سيفقدون مأواهم الليليّ. ولن نجرؤ، بعد الآن، خوفاً من الرادار، أن نروي على شرفة، أو في الحقول، حكاية حبّ، ونسترخي تحت السماء الناصعة ونسترسل في النجاوى ناعمين بروعة الطبيعة.

لا حدود لفضول العلماء، فهم، بتنوّع أشعّتهم، يعبرون الفضاء ينفذون إلى كلّ مكان. وفيما هم يبلغون القمر لا بدّ أن يثيروا فينا قلقاً على مصيره. فهل ستجرّب عليه الطاقة الذرّية؟ وأيّ أذى قد يلحقون بهذا النقاء وهذه الطهارة!

لو لم يكن اليوم يوم أحد يبقي لنا بعض الحقّ بالتخيّل خلال الراحة الأسبوعيّة لما كنّا تحدّثنا عن القمر بعبارات عفى عليها الزمن.

لكنّ القوانين الاجتماعيّة ما حرّمت بعد على من يعمل أن يتفلّت لحظة من عبوديّة العالم المعاصر لكي يتحسّر على مصير القمر ويتساءل هل سيُلحق هذا الكوكب هو أيضاً بمشروع مغفل يتّصل بخطة سنوات خمس أو هل سينتزعه من أبديّة الوحدة منقّبون أو صناعيّون أميركيّون ويجرّدونه من نوره.

حقّ الأقوى...

٣٠ كانون الثاني ١٩٤٥

«كلّ الذين يريدون إنجادهم وتوليتهم الملك هم يملكون وينتزعون السلطة ممّن يشاؤون! إنها أمّة عظيمة القدرة».
(كتاب الماكابيين[١]، ص ١٣)

هذا ما قاله الكتاب المقدّس عن الرومان. وهذا شأن الإمبراطوريّات المعاصرة باسم الديمقراطيّة وأوهامها، لكلّ واحدة منها أتباعها وزبانيتها. هي تصنع وتحطّم الأمراء والجمهوريّات حسب أهوائها. وكلّ واحدة تحاول أن تحمي حدودها وأبعد منها إذا استطاعت، برّاً كانت أم بحراً.

وعند بولنده وإيران وغيرهما من بلدان الغرب والشرق الخبر اليقين. ذلك أن في جيرة الأسد فوائد دائمة للأسد... بعد موت عصبة الأمم ها منظّمة الأمم تمرّ الآن بالتجربة التقليدية المحتومة.

في السنوات الأخيرة دار الحديث، أكثر من ذي قبل، عن الاستقلال وعن الارتباط المتبادل. أمّا عن التبعيّة فساد صمت واستمرّ. ففيما أعلن الفارسيّ أنه يريد الكلام في وضح النهار دعاه الروسيّ، بلطف، إلى تفاوض ثنائيّ. وفيما نشأ منبر عالميّ يُتيح للأمم أن تعبّر بصوت عال عن شكاويها وأمانيها إذ بهذه الأمّة أو تلك تدعو، بلباقة، جارة لها، إلى

---

١. *Macchabées* 1. 13.

مسارّة حميمة. وقد صحّ في هذا القول الإنكليزي: «إذا اجتمع اثنان كوّنا جمعيّة أما ثلاثة فلا».

هكذا بكلّ وقاحة يُعقد اتّفاق عن الغير ويجتمع الذئب والحمل على مرأى من صاحب الأسطورة[٢].

ما زالت السياسة الدوليّة في أيّامنا، كما كانت دائماً وكما في عهد الرومان، سياسة الممكن: «آه. لا تخلفوني مع الجمهوريّة»، هذا ما قاله كورناي باسم ملك بيتينيا، في مسرحيّة نيكوميد. فكم من رجل دولة في لندن وفي غير عاصمة يقول هذا القول!

ذلك، ويا للأسف الشديد، أن الارتباط المتبادل بالنسبة للبعض يستمرّ مرهوناً بسلامة الآخرين وأطماعهم وقوّتهم.

والفنّ كلّ الفنّ في هذا المضمار هو التقدّم بحرّية باتّجاه الضرورة، هو المضي بترنّم نحو ما لا مفرّ منه. إذ لا يُطلب من المبادئ الشبيهة بالثمار الفجّة أكثر ممّا تستطيع أن تُعطي من عصير وزبد.

وهذا لا يعني قطّ ضرورة الانصياع الكليّ لأن للحقيقة، بحمد الله، قوّتها وللذكاء وسائله. ولكنّ لا بدّ من تفسير هذه الكلمات حسب المعنى النسبيّ الذي تطلقه عليها السفارات والمنظر الطبيعي والمناخ. وجليّ أن استقلال إيران واستقلال الاتّحاد السوڤياتي لا يتساويان ولا يتشابهان، كما لا يتساوى حتماً ملك وملك آخر وجمهوريّة مع جمهوريّة أخرى.

من حسن الحظّ أن الوهم والمراسم تُنقذ ماء الوجه والشرف فيما الحقيقة الراعبة تختبئ وراء ألعوبة الظواهر.

---

٢. أسطورة «الذئب والحمل» لـ لافونتين.

نحو إمبراطوريّة الغرب

٢٤ شباط ١٩٤٦

حين كتبنا، منذ ثلاث أو أربع سنوات، أن فرنسة وإنكلترة تتّجهان نحو وحدة مصير، اعترت الدهشة بعض الفرنسيّين. كان يومها زمن الغضب، فتلوا علينا ببرارة ساذجة، لائحة شكاويهم ومنها أن إنكلترة أخطأت في تدخّلها بشؤونهم، قصّرت بواجباتها، أفرطت في اغتنام الفرص وما وفت بصداقتها.

وغاب عن ذهن البعض طبعاً أن التاريخ صنيعة هذه الاختلافات. ومن الخطأ والضلال، كما قلنا، أن يُخلط، أوّلاً، بين السياسة والفضيلة، ثم أن نقسى نحن بحقّ الغير ونتساهل بما خصّنا.

أوّل البارحة تحدّث السيّد بيدو، وزير خارجيّة فرنسا، عن حلف مع المملكة المتّحدة. وهذا دليل جديد على أن أوروبة الغربية قد أدركت معنى رسالتها. وها من جديد يتأكّد تضامن الغرب ويفهم رجال الدولة الأوروبيّون أن أوروبة المقسّمة لا تعود تشكّل قوّة ولن تكون (بعد خمسة عشر قرناً من القوّة) إلا مجموعة ضعفاء.

لكن ساعة العقل دقّت.

أوروبة هي الآن، بالنسبة إلى العالم، ما كانه سائر العالم بالنسبة لأوروبة في عهد شارل الخامس وإليصابت وريشوليو.

ولا بدّ اليوم أن يتمّ التقارب والاتّحاد وإلاّ كان الهلاك. ونحن هنا في

لبنان، بحكم رسالتنا، وبحكم الضرورة، أصدقاء أسياد العالم. لكنّنا، لمصلحة هذا الشرق الذي ننتسب إليه، لسنا على **استعداد لأن نسلّم بزوال أوروبّة.**

ما زال بعدُ على الأرض مكان لأكثر من امبراطوريّة وينبغي أن تكون أوروبّة إحدى الامبراطوريّات. ولكنّ هذا الأمر يستحيل بلا تحالف بين إنكلترة وفرنسة.

منذ عهد الرومان انبثق التاريخ كلّه من أوروبة والشرق الأدنى، فالشرق شرقنا، شرق المسيحيّة والإسلام واليهوديّة معاً، حاضرٌ ويحيا في كلّ مراحل هذا التطوّر المشهود ونعرف أن من العبث أن يُفصل عنه.

إن تقارب إنكلترة وفرنسة بشير خير لمستقبل العالم، لأن عظمة روسية وعظمة أميركة، والأمجاد الفتيّة في القارات الجديدة **لا يتصوّرها العقل إلاّ على ضوء الماضي الذي جعلها ممكنة.**

بالنسبة إلى الشعب الأبيض، سواء أكان من أسبانية، من لبنان، من اليونان، أم من سورية (بدون أي عصبيّة عنصريّة)، وبالنسبة للأجيال التي تحمل في جسدها وروحها بصمة البحر المتوسّط الشرقي، وبالنسبة إلى الأوروبيّين وللعرب معاً ثمّة مواقع رئيسيّة ينبغي أن تحمى وأن يدافعوا عنها معاً.

من هنا أن تحالف إنكلترة وفرنسة، تحالفاً تعمل فيه فرنسة ضمنيّاً لحساب جيرانها الأوروبيّين، جدير بالترحيب حتى في الجزيرة العربيّة، كتظاهرة سياسيّة بالغة الأهمّية.

إن في هذا التوازن وحده (في امبراطورية الغرب الذي سيراها القرن القادم) تأمل الأرض أن تنعم بعدُ بشيء من حلاوة العيش.

تذكّر أنك من تراب!

أربعاء الرماد ١٩٤٦

فيما الإمبراطوريّات تتصارع وفيما الناس ينسون أنهم صائرون إلى الموت، تذكّرنا الكنيسة بأننا من تراب.

إن الانتقال من المرفع إلى أربعاء الرماد، أي من الجنون، طوال يوم، إلى استذكار الموت، بشكل محسوس، لبرهان على عدم مبالاة مدهشة. ذلك أنّنا لا نعزم على مواجهة النهاية المحتومة إلاّ عبر متاهة أخطائنا وأوهامنا.

لقد جعلنا في الخمور التي تسكرنا رجاء باطلاً. فبعد الصور المشوّشة التي تسخو بها علينا تعاودنا معرفة مصيرنا بمرارة أشدّ فنعلم أنّ كلّ شيء يتغيّر من سنة إلى سنة وساعة وساعة، على حساب تآكلنا، ونحيا كأن جسدنا معصوم من الجراح، كما لو، منذ ولادتنا، ما كانت كل خطوة نخطوها تدنو بنا من النهاية، وبعد النضج، تشكّل نقصاً محتوماً في دوامنا وحيويّتنا.

كيف لا نقول هذه الأشياء وغليان الجماهير في ذروته، والشهوات الجامحة تحتاج كل ما تقدّمه لنا الروح في مجال الحبّ!

إن كلّ المذاهب الاجتماعيّة لعلى ضلال إذا ساست شؤون الحياة وفق حدودها. ذلك أن كلّ البحبوحة في الأغذية الزمنيّة لا تعوّض عن لحظة من الشقاء الآخر، شقاء العقل والقلب.

إن البشر في حرب دائمة من أجل خيرات زائلة. يتنازعون ما لو فاض عن الحاجة لأنفته الحيوانات واحتقرته. فحين يُغفلون عن أمثولة الرماد يستولي الحسد عليهم والضغينة، ويبقى توقهم الوحيد أن ينتزعوا من الغير ما لن يملكوه. هذا هو إفلاس القوانين البشريّة وقد تقلّصت إلى حجمها.

لا شكّ أن العظمة والسلام والسعادة ليست في هذه الأمور بل في الحقيقة البسيطة المتجسّدة في حفنة رماد تسمو بنا سموّاً عجيباً فوق بؤسنا وتنتقل بوضعنا انتقالاً أليماً من الجدّي إلى الإلهي، من العذاب الذي يُشرّف إلى بلوغ السلام الوحيد الذي لا تتهدّده المخاطر.

تضامن الروحي والزمني

١٦ آذار ١٩٤٦

خلال الصوم الكبير يتوجّه رجال الكنيسة إلى الشعب باندفاع أشدّ. يرفعون صوتاً أحزم ويذكّرون الإنسان بمصيره النهائيّ. وثمّة منابر شهيرة وأنواع صوم مشبعة بالبلاغة المقدّسة وثمّة غيرها تتّصف بالاعتدال والضعة وهي ليست أقلّ فعاليّة وتأثيراً في النفوس.

في هذا الزمن، وعندنا لا يساعد ضبط النفس الحكمة، فلا أقلّ من أن نسمع الأصوات الروحيّة، لا سيّما وقد تأكد لنا منذ أيّام أن كفّة قيصر قد رجحت في الميزان على كفّة الله، وتعدّى الزمنيّ على حقوق الروح وأن الاختلال والانحراف هما في أساس الفوضى الشائعة وأن أفضل سياسة أرضيّة وإنسانيّة تستدعي التأمّل في هذا الموضوع الخطير.

لكي لا يثقل على الشرطة في مدننا ولا تتضاعف الجرائم، كبيرة كانت أم صغيرة، ولكي يقوم المواطنون بواجبهم نحو الوطن (وكل إنسان بواجبه نحو البشريّة) ولكي تستطيع الحكومات أن تحكم بدون اللجوء إلى العنف، وأخيراً لكي تسعى الأمم إلى تعارف أفضل في ما بينها وتتبادل الحبّ، لا بدّ أن تسود النزاهة الفرديّة والجماعيّة أكثر مما تسود الآن وتتطهّر الأخلاق، وأن يسبق قيامنا بواجباتنا المطالبة بحقوقنا.

من قريب أو من بعيد، بهذا الشكل أو بآخر، كلّ هذه المسائل ترد في عظة الصوم، فيما الدعوة إلى التأمّل والتوبة، (وهي السمة البارزة في ما

يُقال على المنبر) واقية بحدّ ذاتها. لأنه بقدر ما يُصلح الإنسان ذاته يقلّ إرهاق القضاة والمحاكم، وبقدر ما يُحترم الناموس الإلهي والناموس البشريّ تنتظم أمور البلد ويقلّ تعرّضه للمخاطر.

إن للشأنين الروحيّ والأخلاقيّ انعكاسهما المباشر على الأمور الزمنية. لذلك لا تستطيع النُظم السياسيّة التي تتجاهل الشأن الروحيّ وتتّسم مناقبيّتها بالسطحيّة والزيف، أن تحيا إلاّ حياة مضطربّة موقّتة تدوم حتى تنهار طاقتها على ممارسة القوّة وحتى تفسد الأخلاق بفعل الغرائز الجامحة.

لو كانت الأخلاق أشدّ استقامة وحلاوة لتسنّى تخفيف عبء الجهاز التشريعي الصارم الذي يُثقل كاهل معاصرينا.

ما فتئ المرشدون الأخلاقيّون يلعبون دورهم في سبيل قيام حكومة سلميّة تسوس الأمم، ولعلّ زمن الصيام والصلاة هو أنسب زمن للحكومات وللنظام العامّ.

ربيع!

٢٢ آذار ١٩٤٦

أحقاً جاء الربيع، والسماء ملبّدة والطبيعة في عبوس؟

لا شكّ أن الشمس تنفذ من خلال الغيوم الشبيهة بالدخان، لكنّ تذكّرنا فصول ربيع ماضية يُرينا هذا الربيع أقلّ بهاءً. هل هي الأحداث؟ أم هي ريح الجنون التي تعصف بالأرض! فالناس عادوا لا يكترثون لتعاقب الفصول. سيّان عندهم الربيع والخريف، النور والضباب، لهبة القلب والروح والكآبة.

إن خير ما عرفناه من أمور مجرّدة عن المادّة نقصت قيمته، رخُص انهار. فقد حلّت لغة الإفلاس محلّ الموسيقى الغائبة ونداوة المشاعر والأفكار وصفاء أعماقنا، هذه الميزات التي كانت تتيح لنا أن نتبع بصمت حركات الكون الجوهريّة. ومعلوم لدينا منذ أمد بعيد أن ما نعتدّ به حقاً في حياتنا، منذ ولادتنا حتى نهايتنا، غائب عنّا ومنسيّ، كالكنز الضائع في مركب غريق. ومع هذا بقي العطر وبقي استذكار أطهر مبرّرات حياتنا. لكن الفوضى عمّت الآن وعمّ معها حرمان النعمة فصرنا لا ندري إلى أين نمضي إذ لا نكاد نتقدّم خطوة بترنّح السكران حتى نحاول أن نرجع أدراجنا.

كلّ شيء تحوّل إلى حمّى وتردّد وشهوات مكبوتة وهياج وهزائم. فالخطّ المستقيم توارى في الفضاء ولم يبقَ إلاّ التيه الذي ضلّت فيه البشريّة فحاولت

مستيئسة الخروج منه بأتفه الوسائل التي تحظّر اللجوء إلى البوادر الإلهيّة.

هل هذا ربيع حقّاً، وهذه الهزيمة في النصر وهذا السقوط وهذا الشقاء! ... لكنّنا مع هذا نتذكّر أنه ما زال بطاقتنا أن نعيّد لمجيء ربيع شخصيّ فينا. فلو عرف كلّ إنسان أن يتجرّد ويتعلّق كفاية بالروح لاستطاع أن يتلقّى بعدُ مفاتيح الملكوت ولاستطاع أن يقول في نفسه أن كلّ هذا الصخب باطل وهذا الجنون باطل وهذه المشاريع الاعتداديّة باطلة وأن الربيع هو من نصيب أولئك الذين يعرفون أن يتحرّروا من كل ما يفرضه علينا عصرنا من قيود في توهّمه الأحمق الضاري بأن يجعل من هذه القيود مدنيّة.

تحت شعار التاريخ

الأربعاء المقدّسة ١٩٤٦

إلى أيّ كُتُب، إلى أيّ صلوات نطلب تهدئة تناسب هذه الأيام التي تعود، هذا الاستذكار السنويّ لتاريخ خارق العادة؟ بين حدث أورشليم، زمن طيباريوس، وزماننا اجتازت الحضارة العالميّة مسيرة طويلة عظيمة. فكلّ ما هو كائن يحمل بصمة منظورة من هذه الوساطة الحارّة الصادرة عن حكمة لا منظورة وكلّ المعرفة البشريّة امتلأت من هذه المغامرة التي لا نهاية لها.

إن ما كان يُسمّى بالعالم، في عهد طيباريوس، اقتصر على منطقة ضيّقة. أمّا اليوم فالأرض كلّها قد اكتُشفت ولم يبقَ منها أيّ أسرار، وقضت على عدد لا يحصى من أفكار مسبقة ومن أنواع رعب. ولئن جهلت حتى الآن مصدرها فهي تقترب من معرفته. إنها تتطوّر حسب نواميس مهيبة نحو مصيرها، وإن اعتراها تشوّش ظاهر.

والآن ما يعنينا هو المستقبل. ذلك أن ما هو كائن، رغم أهمّيته، يعظم كلّ يوم. وفيما كوكبنا يدور يزداد إدراك المقيمين عليه وتتّسع قدرة الإنسان، للخير او للشرّ، وتدنو من قدرة الملائكة ودياجير الجحيم.

حصل كلّ هذا خلال نحو ألفي سنة. لكنّ نقطة الانطلاق ظلّت ثابتة ثبات النجمة القطبيّة. وفي كلّ سنة، في مثل هذه المرحلة من الربيع، يملأ العالم صدى المأساة «في عهد بيلاطس البنطيّ».

ثمّة ما يدعو حقّاً إلى التفكير، بل إلى مزيد من التفكير. ففي التأمّل الذي تفرضه الطقوس الدينيّة، هذه الأيّام، تستمرّ البشريّة في البحث عن مبرّر وجودها ومعنى رسالتها. وهذا الاستذكار الدائم يُقرّب بين الأديان بدل أن يباعد بينها، لأن ما يجمع بينها هو البحث الدؤوب عن الإلهيّ والارتقاء نحو اللانهاية.

أما نحن البشر، في غمرة المصاعب الهائلة التي نواجهها، فإن لم نحاول الارتقاء من جديد نحو النور، إن لم نجرِ بحوثاً حول ما يعلو رؤوسنا فما سيكون مصيرنا؟

قرابة العلوم والفنون

الأربعاء المقدّسة ١٩٤٦

إن العالم الاقتصادي اللورد كينز كان أيضاً صديقاً للفنون. وقد بلغنا، مع نبأ موته، أنه أنشأ مسرحاً في كمبريدج ورأس بجدارة «مجلس تشجيع الموسيقى والفنون». فيا لها من أمثولة ويا له من قدوة!

هناك مثال آخر هو پول ڤاليري وأهمّ منه أيضاً مثال پاسكال وليوناردو. كلّهم جمعوا بين تعشّق العلوم الصحيحة وتعشّق الفنون العليا. ففي العلوم الاقتصاديّة، كما في الرياضيّات المجرّدة، سلّم يؤدّي إلى تذوّق أسمى الجمال.

كان كينز أولاً عالماً اقتصادياً. وقبل أن يكون الآخرون علماء رياضيّات أو فيزياء، كان هذا رسّاماً وذاك فيلسوفاً أو شاعراً. ونذكر في هذا السياق أسماء كثيرة تتفاوت شهرة.

الحقيقة هي أن لا شيء يتنافى مع أي شيء آخر. ففي طاقة الإنسان، بدون أن يخون الآلهة، أن يقضي حياته كلّها بين الفحم والنسيج المنمّق.

على الشرق التاجر أن يسترشد بهذه الأمور فيترك مجالاً كافياً للفنون فيما هو يمارس التجارة.

في الواقع، إنه منذ زمن بعيد، بل منذ قرون، خولط بين الأعمال التجاريّة والفنون، في حوض البحر المتوسّط الشرقي، كما في المناطق التي كوّنت السلطنة العثمانيّة.

على مدى زمن طويل سحقت الأرقام والحسابات عندنا كل ما عداها. أما الآن فينبغي تصويب المسار، بحيث لا يعود التقنيّ ورجل الأعمال يتميّزان، بهذا القدر، عن الفنّان والذوّاقة وهواة المسرح والطرف الفنيّة.

إن مسرح الفنون في كمبريدج الذي أنشأه اللورد كينز وفّق بين أجفّ تقنيّة اقتصاديّة والتجريدات الصارمة. فرجل مثله ما اكتفى برقصة النقود والمعادن والمشاريع والموادّ الأوليّة، بل تطلّع إلى ملهمات الفنون الجميلة: تربسيكور وملبومين وتالي[١].

لقد فرّج عنّا قليلاً ما علمناه عنه وحثّنا على أن نلبّي، بنشاط أوفر، نداء الهروب من الواقع.

١. Terpsichore: ملهمة الرقص والغناء في الأساطير.
Melpomène: ملهمة المسرح المأساوي.
Thalie: ملهمة الكوميديا والأعياد الشعبيّة.

كلام بيّوس الثاني عشر

٥ حزيران ١٩٤٦

عشيّة الانتخابات في فرنسة وإيطالية تميّز خطاب الأب الأقدس بالشدّة في مناسبة ذكرى تولّيه الكرسيّ الرسوليّ. فقلّما جاء على لسان رئيس المسيحيّة الكاثوليكيّة كلام بهذه القوّة. إن بيّوس الثاني عشر، وقد عُرف بثبات الجنان (على غرار سَلَفه الشهير) سيطر على هذا القرن. وقد توجّه إلى جميع البشر كراع وهاد.

ما الذي قاله البابا؟ تلفّظ أوّلاً بهذه العبارة (المحزنة): «بدا السلم يبتعد» ثم أضاف: «إن خدّام الله كثر بما يكفي وأقوياء في العالم لكي يجابهوا النزاعات القائمة بدون خوف».

ما أروع هذه الدعوة إلى الشجاعة والجسارة أو، بلغة هذا العصر، إلى **المقاومة الفعّالة**.

لماذا يشعر أهل الإيمان (أياً يكن إيمانهم) كأنّهم عُزّل أمام نكّاري الروح، أمام قوى الكبرياء التي تُعامل الله كأنه وثن؟

أنتم كثُر، هذا ما قاله البابا، فيما الآخرون يحاولون بالتحدّيات والتدجيل تضخيم صفوفهم تضخيماً خادعاً. أنتم أقوى من خصومكم لأن معتقداتكم ترتكز إلى مبادئ خالدة.

تلك هي لغة الراعي، داعية السلام، الذي يرفض الانصياع المبهم حين لا تقضي الضرورة ويذكّر أن بجانبه العدد الأكبر من البشر ويجد في

معسكره، فضلاً عن هذا، الذكاء والعلم والعقل.

لقد هزّ أوروبة والعالم هزاً هذا الصوت الضعيف والأعزل ظاهراً، ففي نبراته نفحة العهود الأولى للكنيسة. فلئن صحّ أن البشر يتصارعون في سبيل السعادة فحريّ بهم أن يبحثوا عنها حيث وجدها آباؤهم قبلهم: «ما كنت لتبحث عني لو أنك ما وجدتني».

قال پاسكال إن في تذوق الألم سعادة لا توصف لأن الألم يتضاءل أمام الإيمان، لكنّه لا يُطاق عند فراغ النفس.

دعا البابا إلى الشجاعة لأنّ السلام بدا يبتعد. وانه لأنذار مأساوي موجّه من حارس أبواب المدينة.

صوت البابا بيّوس الثاني عشر هزّ ضمائر الملايين وعزّز معنويّات الشعوب التائهة، السائرة على غير هدى. أنه صوت تحدّى الخوف والموت.

مقاضاة الماضي

٣ تموز ١٩٤٦

ما كان الماضي قبيحاً دائماً بقدر ما يظهرونه لنا.

في أيّامنا، كما لا يجهل أحد، تنتشر المجاعة والفوضى في كلّ مكان. ويتبجّحون، مع هذا، بأنهم حقّقوا سعادة الشعب ووفّروا له أفراحاً ما عرفها آباؤنا. ولولا سرعة التصديق لدى الناس لكانوا اطّلعوا على الحقيقة، بشكل أفضل، ولو بدافع الانصاف.

ثمّة مؤرّخون مُزيّفون كما في العملة مُزيّفون. وثمّة اختصاصيون في إفساد العقل البشريّ عن إدراك أو عن غير إدراك. فمثلما الشائعة المروّجة ببراعة هي إحدى الوسائل المألوفة في المضاربة الجشعة، هكذا النظرة، التي يعرضونها لنا، إلى الأحداث تُساهم في حملنا على الإعجاب بها أو على كرهُها.

لا تقتصر المضاربة على القيم المنقولة، بل تتعدّاها إلى القيم الخُلقية والاجتماعيّة. وعلى هذا النحو طُرحت للنقاش وتعرّضت لأسوأ نقد العهود الجمهوريّة والملكيّة حتى في أبهى القرون. فاذا رجال ونساء تميّزوا بالتعقّل نُسب الظلم اليهم فيما الظلم الحقيقيّ تحلّى بالبراءة والفضيلة.

بالعودة إلى حديث الأغذية وحلاوة العيش يجدر بنا أن نسوق إلى القارئ المثل التالي. جاء في رسالة وجّهتها كاترين الثانية الكبيرة إلى ڤولتير من بطرسبورغ في ٣ تموز ١٧٦٩ :

«قلت لي، يا سيّد، إنك تشاطرني الرأي حول أمور عدّة قمتُ بها وإنك اهتممت بها. ألا اعلم، يا سيّد، أن الضرائب عندنا هي من الضآلة بحيثُ تُتيح لكلّ فلاّح في روسية أن يأكل دجاجة عندما يطيب له وأنه منذ حين صار الفلاّح يفضّل الديوك الحبشيّة على الدجاج وان الاتّجار المسموح، مع بعض القيود التي تمنع الإفراط ولا تعرقل التجارة، الذي رفع سعر القمح وافق المُزارع وجعل الزراعة تنمو سنة فسنة والسكّان يزدادون عدداً بنسبة العشر في مقاطعات عدّة منذ سنوات سبع».

فهذا النثر الرّوسي، بلغة فرنسيّة، يطفح بالصحّة ولا يبدو فيه مكر ولا خداع بأي شكل.

وتعود بنا الذاكرة، في هذا السياق، إلى هنري الرابع ودجاجته في القدر[1].

لو استثنينا بعض الطغاة لرأينا أن الناس ورؤساءهم ما كانوا قطّ أشراراً (ولا صالحين) بقدر ما قيل لنا. هذا مع العلم أن في التاريخ شؤوناً من كل نوع. ولا يحقّ بالتالي لأي بلد أن يتكلّم بغضب واحتقار. وينبغي ان يُعتبر الأدب، الذي يقود الى هذا الشطط، فاسداً ومُنافياً للمجتمع. ولقد مرّت فرنسة أيضاً بهذه التجربة المفارقة. ففيما هي تظهر أن أجمل ما في حقول الفنّ والعقل يعود الى قرن ذائع الصيت نرى كُتُب أنصار الديمقراطيّة المتطرّفة[2] تدين هذا القرن بالذات وكأنه عصر بربريّ وتعرض الحاضر، رغم ما خلّف من دمار، كأنه تصحيح أخطاء الماضي القريب والبعيد.

إن للشعوب والأجيال الحكومات التي تستحقّ. فالأخلاق والممارسات هي التي تصنع الحكومات والشرائع.

في ماضي الزمان كانت الحضارات تُلطّف، نوعاً ما، ما يحمل، فطرياً، كل إنسان في ذاته من شرّ ولا إنسانية. لكنّ الأيّام التي نحياها

١. «الدجاجة في القدر» تعبير يشير إلى توفير البحبوحة إلى الطبقة الوضيعة. ويُنسب إلى الملك الفرنسي هنري الرابع ترديده هذه العبارة: «أريد أن يستطيع كل فقير فلاح في مملكتي أن يضع كل يوم إحدى دجاجاته في قدر. وذلك تدليلاً على حسن سياسته الاجتماعية.

٢. Les Jacobins et les ultra-Jacobins.

علّمتنا فقدان الشعور تحت ستار المظاهر الخادعة .

إن جلّ ما أمكننا أن نرجوه (بعد حشد الأبطال والفلاسفة والقدّيسين في التاريخ) من قلب كلّ إنسان وعقله ، من إنسانيتنا وحناننا ، هو أن يتوصّل القانون إلى فرضه بالإكراه الشامل مُخيّراً بعنف بين الكذب والموت .

بين القوانين والطبيعة

٩ تموز ١٩٤٦

لكي يستعيد هذا العالم المُختلّ بعض الانسجام ينبغي أن يفوق عدد الشعراء عدد رجال الاقتصاد. فليت معظم قوانين هذا الزمن التي سُنّت ضدّ الناس، لا من أجلهم، أُلغيت وأُبدلت، لمصلحتهم، ببعض القصائد.

لقد بلغت ترسانة التشريع في العالم حدّاً راعباً. وفي المقابل ازدادت الآداب العامّة والخاصّة انخفاضاً.

إن الشعوب التي تُثير أشدّ اعجابنا نطمح لاستعارة قوانينها ولا نستطيع استعارة نُظمها الاخلاقيّة والاجتماعية. فإذا بنا نتلقّى أكثر فأكثر تعاليم مُعقدة لا إنسانية يقلّل الشيطان من خضوعنا لها.

وهكذا، رويداً رويداً، تكاد تصبح القوانين، في كلّ مكان، كما أصبحت عليه، أي موضع تشكّك وهزء، ووسيلة سلبية لإثراء الذين يحيون على هامشها ويسخرون منها.

بالحقيقة، رغم ما يُبديه العالم من تفاؤل، إنّ الأرض تعاني مرضاً شديداً. فالناس بطبيعتهم وغرائزهم يتفلّتون من ربقة الذين يقودونهم، وهؤلاء الذين يظنون أنهم يقودون الآخرين يتصرّفون كما لو فقدوا الصواب. إنها لمقامرة هائلة ظاهرة، تنمو خلالها، ولا شكّ، تدابير عناية إلهية، ذلك أن في زمن استشراء الفوضى، وعلى ضجيج سقوط الممالك، يتهيأ للجنس البشريّ وجه جديد وتنسيق جديد.

مصيبتنا أننا نعجز عن التوافق على مبادئ، على أفكار، وندع للاختبار أمر تقرير المصير. والاختبار مُكلف دائماً ومرير.

ليس الإدراك السليم ما يُقر لنا إن كنّا على حق أو على خطأ، بل الكوارث. ولم يبقَ لنا أي تعليم نقتبسه الاّ ذلك الذي تلقيه علينا المحنة والآلام.

تلك هي حالة الآلة المُستديرة التي نركض فوقها حائرين، شأننا شأن النمل الذي يخرّب وكره بدون انقطاع.

لكن تأمّلوا كم في أعسر الساعات تُريحنا لحظة شعر، نغمات موسيقى، فكرة سامية التجرد، نظرة هادئة إلى الطبيعة وإلى جمال الحياة.

فيما النظريّات والقوانين العوجاء لا تحمل إلينا الاّ الإرهاق والخدر، فإن صلاة أو منظراً طبيعياً أو نشيداً يُعيد إلى نفوسنا الانتظام.

في غمرة الضوضاء السخيفة حيث نعيش هلاّ وجدنا سبيلاً يعود بكل منّا إلى وسائل الانتعاش والسلام هذه؟

خريف الأفكار

١٧ أيلول ١٩٤٦

أن يُنظّم هذا العالم كغاية بحدّ ذاته أو ينظر إليه بالنسبة لأبدية رائعة. أن يُعتقد بقدرة خلاّقة، فوق البشرية، أو أن تُنكر هذه القدرة. أن تعتبر الحياة حكاية أفراد حقيرة سخيفة أم كتجربة تناط بها القيامة بفعل عدالة أبديّة: هذا هو الخيار الذي يتجاوز مآسي هذا الزمن ويصنع المذاهب والشرائع.

كلّ ما يُبنى سياسياً في لندن وباريس وواشنطن وموسكو وفي سائر العواصم، يوحيه، مباشرة أو لا مباشرة، تأكيد أو نفي يورّط كامل المسؤولية. ولكن أي معنى لمسؤوليّة لا تلتزم الأحيال أجيال البشر القادمة!

إن النسيان يغمر كلّ شيء ويجعل من الماضي الأقرب سرآ. لكن العذاب البشريّ واقع يتنامى. وبقدر ما ينقُص جسدياً يزداد معنوياً.

كلّ ما يوفّر من ألم على جسدنا نلقاه في نفسنا. ذلك أن الألم قد اشتدّ في النفس بقدر ما وقى العلمُ الجسد منه. فوعينا هو الذي يستولي على آلامنا الجديدة ويرعاها فيتّخذ إزهارها اشكالاً مجهولة.

لا ريبَ أن في الأساس يستمرّ التوازن القديم. والتجربة تظلّ كما كانت، لا تُفهم من دون السقوط بالخطيئة، ولها رحابة المصير.

سيّان عندها إن قبلتها المذاهب أم رفضتها فهي حاضرة، وينبغي أيضاً كم نتغذّى ونستسلم للنوم أن نعرف كلّ أشكال الخيبة والهلع والقلق والبؤس والعذاب وهي لا تُعدّ.

كل هذا يواجهه البعض بفعل إيمان كبير، بإشراق المحبّة والتسامي بالألم. ويواجهه الآخرون بعنف العقل وبالوسائل المادّية التي يزعمون أنها وحدها تصحّح خلل القوة المنظّمة.

يجب الخيار بين الإخاء بالحبّ والإخاء بالموت.

ذلك إن ما سنعمله يقرّر هل ستكون حياتنا مُحتملة أم لا، وهل سننعم بعزاء الروح أم سنبدله بأدوية صيدليّة تافهة.

ما من سياسة، مهما بلغ شأنها، الا وتبنى على الاخلاق، وما من تشريع يقوى على البقاء إن لم تكن غايته سموّ الخلُق وتعزيز الكرامة الانسانية.

على أبناء هذا القرن، وهم يختلفون في هذا عن آبائهم، أن يتّخذوا موقفاً. فهم ليسوا حجارة شطرنج وحسب. فالقصبة[1] تسترسل بالتفكير بحيث صار على كلّ منّا اليوم ان يغذّي الشعلة أو يطفئها.

على اللبنانيين (وكثيرين غيرهم) من حملة شهادات لم يسرقوها أن يتحمّسوا لمثل هذا النقاش.

١. حدّد پاسكال الإنسان بالقصبة المفكّرة.

خريف

٢٤ أيلول ١٩٤٦

كتبتُ ذات يوم ان كلّ المدنيّات، بالنهاية، قد تكون من ثمار الخريف. وها نحن في فصل النضوج. لكنّ، عندنا ما زالت شهور أوراق الشجر الصدئة والظلال تحمل ألوان الصيف. فما أن يمرّ ضباب خفيف في أواخر أيلول فوق الجبل، حتى نشعر بحرارة نغميّة الانقلاب الصيفيّ وليس بصخب الاعتدال الخريفيّ.

إن للبنان فصولاً تتداخل بحبّ، فلا يعزم واحد منها على الانصراف التامّ باستثناء الشتاء الذي يمرّ فوق شواطئنا، وكأنه آسف وكعنصر ضروريّ لمسيرة العوالم.

في لبنان، الخريف فترة من الزمن ينبغي استقبالها بحفاوة، لأنها تتيحُ استعادة ضبط النفس، والاقلاع، بجهد، عن فكرة الافتتان بالشمس، والتسليم الذهني المتواضع بأن النور بطبعه أن لا يدوم.

ذلك أن مدى الليل، في الكون كلّه، يتجاوز كثيراً مدى الأشعّة وزمن الصمت يطغى على زمن الأناشيد. فالخريف يألف الأبعاد الشاسعة أكثر مما يألفنا نحن رغم وجود النجوم بأعداد لا تُحصى.

ما نقوله هذا الصباح عن الخريف فلنجعله في وفاق مع أعماق ذاتنا.

ولنحاول، نحن أيضاً، أن نحمي من الصخب ومن الأيام الشديدة الضياء ما نحمل في باطننا من جوهر يتّسم بالرزانة والهدوء والخلود.

على مفترق العوالم ينبغي أن يكون مجيء الخريف بالنسبة إلينا، دعوةً إلى التأمّل واستدعاء لأنقى القوى وأخفاها.

بعد التنعّم بروائع الصيف فلنتهيّأ لفتنة الأشهر التي تمّهد لجميع القيامات.

كلمات ضائعة

١٨ تشرين الأوّل ١٩٤٦

مزاجنا يتغيّرُ مع الأيام. ويكفينا القليل لكي ننسى وأقلّ منه لكي نتذكّر. وحسبما تتراءى لنا صورة مشرقة او قاتمة تتّجه افكارنا نحو النور او نحو الظلام. لكنّ هذا الزمن زمن المحنة.

الوعي البشريّ يتّسع، يحطّم الأطر القديمة العهد، وحسبنا الآن أن نعرف الأبعاد الحقيقيّة للدوام والكون لكي تستولي البلبلة علينا.

إننا نفقد الصواب أحياناً حين نجد أنفسنا امام قرون لا يحصى عددها، امام مسافات وكواكب بكميات هائلة.

سيأتي يوم، ولا ريب، يولي فيه كلّ انسان (حتّى الوضيع الوضيع) اهتماماً بالكواكب أكثر من الحقل الذي يزرع.

فما أهمّيّة الأمم (ونزاعاتها) بالنسبة للامتناهيات. وما أهمّيّة حياة بشريّة والقليل الذي تحويه أمام آفاق الجنس البشريّ؟

لو استطعنا إبقاء أفكارنا على مستوى مصيرنا لأصبحت ثلاثة أرباع التشريعات بدون جدوى ولاستعادت السعادة الأرضيّة معناها.

وأسوأ ما في الأمر أن الحكومات، في كلّ مكان تقريباً، تبدو حتى أسوأ من الأفراد. وكلّنا يعلم مقدار اهتمامها بما اتُّفق على تسميته بالمناقب الدوليّة.

قتل أمرئ جريمة ولا شكّ، أما قتل شعب فمسألة فيها نظر. حتى بعد

محاكمة نورمبرغ، وليل مشانقها، ما زال مصير الشعوب غير آمن.

قبل التشاور الجدّي حول السلم، لا بد من التشاور أولاً حول النفس، لا بدّ من الاعتراف بالحقوق العليا التي تعود لهذه الآلة الروحية العجيبة التي ندمّرها لمصلحة آلة زمنية نبتدعها.

لئن بدا في هذا الجو مشهد الأمم مُغماً، عاتماً، فحسبنا أن نشيح عنه قليلاً لكي يعاودنا الصفاء.

«الحكيم الحقيقيّ هو من يبني على الرمل». ولا تلذّنا هذه الفكرة الشعريّة لهنري دو رينييه الاّ اذا فهمناها بمعنى عظمة التجرّد. لأنه ينبغي، على العكس، أن نبني على صخر ونحن نتذكّر أننا لسنا الاّ غباراً.

إن الأرض تظلّ حلوة لمن لا يتعلق بها، لمن يقصر أطماعه على الميل إلى الخدمة والحبّ.

المطابع التعاونية الصحفية ش م ل، بيروت، لبنان
حزيران ١٩٩٧